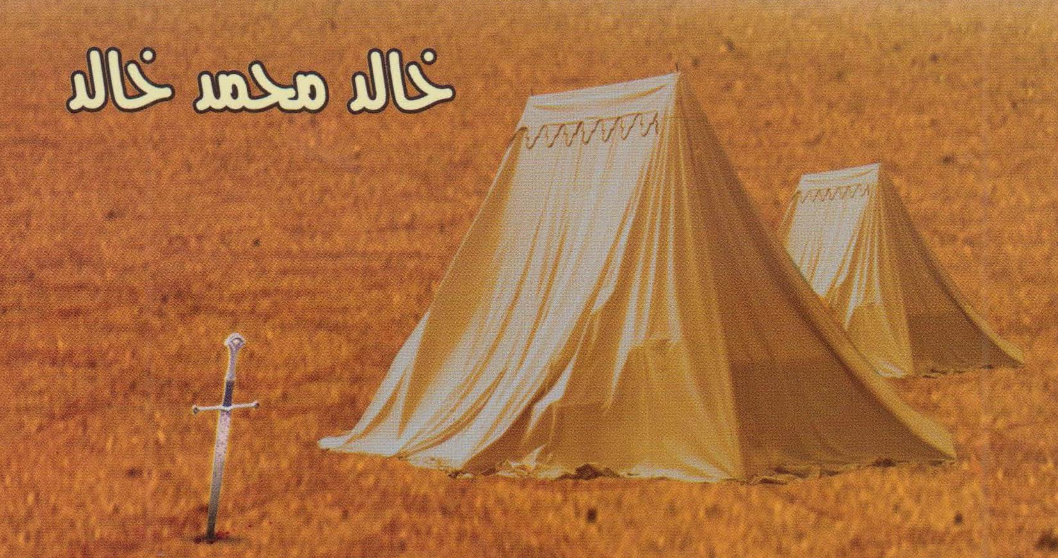
أبناء الرسول صلى الله عليه وآله في كربلاء



خالد محمد خالد

دار المحجة البيضاء

أبناء الرسول
في كربلاء!!

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م





الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمّال
ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١
تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail : almahajja@terra.net.lb
E-mail & FB: info@daralmahaja.com
www.daralmahaja.com

خالد محمد خالد

أبناء الرسول في كربلاء!!

دار الحجة البيضاء

مراجع تاريخية

(١) الطبقات الكبرى — ابن سعد

(٢) تيسير الوصول — ابن الدَّيْبَع الشَّيباني

(٣) الأخبار الطوال — الدِّينَوَرِي

(٤) البداية والنهاية — ابن كثير

(٥) تاريخ الطَّبَري — ابن جَرير الطَّبرِي

(٦) أُسْد الغابة — ابن الأَثير

(٧) حِلْيَةُ الأولياء — أَبو نعيم الأَصبهاني

(٨) مقاتلُ الطَّالبيِّين — أَبو الفَرج الأَصبهاني

(٩) معاوية وعصره — عمر أَبو النصر

الإهداء

إلى يوم «كَرْبَلاء» . .

بكل آلامه ، وبُطولاته . . .

بكل مَأْساتِه ، وعظَمتِه . . .

بكل أمجاده ، وحَصادِه . . .

وإلى بَطله الأكبر . . وأَبطاله الأبرار . . .

الذين جعلوا منه يوما «فَوق» التاريخ . .

والذين بَذَلَوا حياتهم ، من أجل الواجب . .

وأَضاءُوا ضمير الحياة بجلال التضحية . .

أُهدي – في خُشوع وتَقْوَى –

هذه الصفحات . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

رَغِبَت إليَّ «دار الاسلام» للنشر والتوزيع ـ القاهرة ودار الكتاب العربي ببيروت – أن تَسْتَهِلَّ إنتاجَها المبارك إن شاء الله تعالى بمجموعة من مُؤلَّفاتي . .

وقد أَذِنْتُ لهما بنشر طائفة من كُتبي ، من بينها هذا الكتاب – مُتمنِّيا لهما التوفيق والسَّداد في خدمة الثقافة الاسلامية والعربية ، وراجيا لهما النجاح في استرداد ما كان لمهنة النَّشْر من شَرف ، وأَمانة ، ومَقْدِرَة . .

خالد محمد خالد

مقدمة

من الصعب أن نجد في تاريخ البشرية كله ، يوما كذلك اليوم الفريد والمجيد . . وأبطالا ، كأولئك الأبطال الشَّاهقين والباهرين . . ! ! إذْ لم يكن الأمر في ذلك اليوم ، أمر شهداءَ بَرَزوا لمنَاياهم في استبسالٍ وغِبطَة . .

ولا أمرَ جيش ، خرج لجيشٍ مثله ، فأَبْلَى وأحسنَ البَلاءَ . .

إنما الأمر الذي شغل الدنيا في يوم كَرْبَلاءَ ، هو أنه اليوم الذي تَجلَّت فيه قَداسَةُ الحقِ . وشَرفُ التضحية على نحو مُتَميزٍ وفريد . . ! !

وصحيح أن تاريخ الإسلام مُتْرَعٌ بالمشاهد الزاخرة بقداسة الحق وشرف التضحية ، أيَّامَ الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفيما تلاَ عصره الرائدَ العظيمَ من عهود وعصور . بَيْدَ أنَّ يوم كربَلاء ، تبقى له سِمَتُه المجيدة ، ومَيْزَتُه الفريدة .

فالقضية الجليلة التي دار من أجلها الصراع . . والقِلَّة الصامِدَة الماجِدَة ، التي وهبت حياتها لتلك القضية . .

والطريقة التي دار بها القتال بين أربعة آلاف فارس من جيش - ابن زياد - ، واثنين وسبعين لاغير . . هم أنصار « الإمام الحسين » . .

والأحداث المُروِّعَة ، التي سبقت ذلك اليوم . . .

والحصادُ الأليم ، والعظيم الذي خلَّفه ، بعد أن مالَتْ شمسُه للغروب . .

كل ذلك يجعل من يوم كربَلاءَ يوما فريدا في تاريخ الآلام والبطولات . . في تاريخ التضحية والمجد . . في تاريخ المأساة والعظمَة . . وفي تاريخ الحق الذي شهد في ذلك اليوم ورغم هزيمة أبطاله - سيادةً وانتصاراً قرَّت بهما عيْناه . . ! !

إن أعظم ما صنع « الحسين » وأهله وصحْبُه في ذلك اليوم هو أنهم جعلوا الحق قِيمَةَ ذاته ، ومَثُوبَة نفسه ؛ فلم يَعُد النصر « مَزِيَّةً » له . . ولم تعُد الهزيمة « إزْرَاءً » به . . ! ! !

لقد وقف اثنان وسبعون بطلا ، وراءَ قائدهم العظيم « أبى عبد الله الحسين » ، ليس لهم في إحراز النصر على عدوهم أدنى أمَل . .

وليس أمامهم سوى القتل بأسلحةِ خَصْمٍ فاجرٍ ، متوحشٍ ،

مسعور . .

وأمامهم فُرص النجاة ، إذا هم أرادوها . . لكنهم يرفضون النجاة ، ما دامت ستكون غَمْطاً لقداسة الحق ، وثَلْماً لشرفِ التضحية . . ! !

وهكذا راحوا يقاتلون حول قائدهم المُمجَّد ، مُعانقين المنايا ، واحداً بعد واحد . . وهم يَصيحون ، بل يُغنّون :
الله ، والجنَّة . . الله ، والجنَّة . . ! !

من أجل ذلك ، يرفُض هذا الكتاب الوقوف عند اعتبار « كربلاءَ » مأساة وفاجعة ، ومناسَبةً للبكاءِ والعويل . .

ويَمُدّ بصره نحو مضمونها الصحيح ، وجوهرها النَّضير ، فيراها مهرجاناً للحق وعيداً للتضحية ، ليس لهما نظير . . ! !

إنه يوم لم يعرف المسلمون بعد ، حقَّه عليهم ، ولا واجبهم تِلْقَاءَه .

وإن الأقدار لم تَدَعْ رؤُس أبناءِ الرسول تُحمل على أَسِنَّةِ رماح قاتليهم ؛ إلاَّ لتكون « مَشاعِلَ » على طريق الأبد . . للمسلمين خاصة ، وللبشرية الراشِدة كافَّة ، يتعلمون في ضوئها الباهر : أنَّ الحق وحده هو المُقدس . . وأن التضحية

وحدها هي الشرَف . . وأن الولاءَ المطلقَ للحق ، والتضحية العادلةَ في سبيله ، هما وحدهما اللذان يجعلان للإنسان وللحياة قِيمَةً ومَعْنى . . ! ! !

وبعد . .

فهل يأْذَن حفيدُ الرسول ، وأَبو الأَبطال ، أَن أُقدم عنه وعن رفاقه الأَبرار هذه الصفحات . . ؟

إني لأُجَاوِزُ قدْرِي ، إِذا زعَمْتُ أَو توَهَّمْتُ أَنني قادر على إيفاءِ تضحياتهم وعَظمتهم حقَّها . .

لقد وَجَدْتُ – لاغير – عَبيرَ تلك التضحيات وتلك العظمة ؛ فَرحْتُ أُنادي الناس كي يستمتعوا معي بهذا العبير . . ! ! !

ولِيَشْهدوا – كما لم يشهدوا من قبل – شرَفَ التضحية ، وعزمَها القدير . . ! !

ويا أَبا عَبْدِ الله . . .

سلام على البيت الذي أَنجبَك . . وعلى الدِّينِ الذي ربّاك . .

وسلام على رفاقِك الأَبطال الممجَّدِين ، والشهداء الظافِرين .

خالد محمد خالد

الفصل الأول

لِلتَّضحِيَة خُلِقوا..

كانت أحَبَّ أهلها إلى أبيها ، وأقربهم من قلبه الودود . .
وكان - صلى الله عليه وسلم - يَشَمُّ فيها عبير ذكريات عزيزة وغالية .

ذكرياتِ السنوات الجليلة التي قضاها في صحبة أمها « خديجة » . .

كما كان يتهلَّل غبطة ورضاً ، وهو يرى فيها أُمَّ ذريته المباركة وسِبْطه العظيم . .

إنها « فاطمة » . . .

بُورِكَ الاسم ، وبُورِكَتْ صاحبتُه ! !

ولقد ذهبت يوماً الى أبيها الرسول تسأله أن يُدبِّر لها خادماً يُعينها على عمل البيت الذي أَمْجَل يديها ، وأَضْنَيَ عافيتها ، ومسَّها منه اللُّغُوب .

وكان زوجها العظيم « علي بن أبي طالب » هوالذي نصحها بهذا حين علم بمقدم بعض السَّبي إلى المدينة ، وحين رآها تكاد تسقط إعياءً تحت وطأة العمل الدائب في خدمـــــة

البيت والأولاد .

وفي دار النبوة – وما كانت دار النبوة تلك سوى حجرة متواضعة في ناحية من المسجد – استقبلها الأب والرسول !

– مَرْحَباً ، يافاطم . .

وجلست « فاطمة » تتحدث مع أبيها ، وبين الحين والحين تحاول الاستنجاد بشجاعتها كي تلقى بين يديه الرغبة التي حَفزتْها إلى المجيْ .

لكنَّ الحياءَ يغلب فيها الشجاعة ؛ فتَكْظِم الرغبة ولا تَبوح . .

ثم تستمر في حديث آخر أشبهُ ما يكون بالنَّجْوى مع أكرم والد ، وأكرم رسول . ! !

وأخيراً تستأذن في العودة إلى دارها ، فيأذن لها أبوها الرسول ، ويُوَدِّعها بنظرات مُشفِقة ، وحانية . .

ويسألها الزوج وقد عادت إليه :

– ماذا قال لك رسول الله . . ؟

وتجيبه « فاطمة » :

– لقد استَحْيَيْتُ أن أسأله ! !

لكن « عليا » يعلم ما تنوءُ به من أعباء ، فيصحبها من فوره إلى الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، حيث يُنهى إليه رغبتها وحاجتها .

ويرنو بصر « النبي » إلى بعيد . . ويلتمع وجهه المضيْ تحت غُلالة شفَّافة من الشَّجَن ، والأسى ، والحَنان . .

إنه لَيعرف – مثلما يعرفان – ماتعانيه ابنته الحبيبة من مَشقَّة وشظَف ، هي التي وُلدت في أَحضان نعيمٍ جَزْل كانت تزخر بـه دار أَمهـا « خديجة » ذات المجـد الـوارف والثراء المُفيض . . ! ! !

لكنها اليوم ابنة « رسول » جاءَ الحياة ليعطي ، لا ليأخذ . .

رسول قرر أَن يكون حظه وحظ أَهله من الدنيا كزادِ الراكِب ، بل دون زاد الراكب بكثير . . ! !

وإن « فاطمة الزهراءَ » رضى الله عنها لتَعلَم هذا النهج وتلتزمه .

ولقد رضيتْ – قريرة العين – أَن يكون كل جهازها الذي زُفَّتْ به ليلة عُرسها – أَعواداً من جريد ، صنع منها سرير واطئْ . . ووسادةً حَشْوُها لِيف . . وسِقاءَين للماءِ . . ورحاءَين

للطحن . . وقارُورَتَيْ طيب . . ومنخلا . . ومِنّشفة . . وقدحا . . !

وهي إذ تجيْ اليوم إلى أَبيها على استيحاء ، في صحبة زوجها الفقير من عَرض الدنيا ورغَد العيش ، فإنها لا تطلب ما ينأى بها عن منهج الرسول في الزهد وفي الورع . . إنها لا تريد أَكثر من خادم يحمل عنها بعض العبء الذي يُثقِل كاهلها . . !

ولكن ، لا . . . فما دامت الأَقدار قد أَسعدَتْها وشرَّفتها بأَن تكون « بنتَ رسول الله » ؛ فإنها في نفس الوقت ولنفس السبب ، تدعوها لأَن تتحمل من التضحية أَقصى ما يستطيع الناس .

ويحتمل معها ذلك القدرَ وأَكثر ، زوجُها وبنوها . . ! !

وإن مشقَّة البيت ، وشظَف العيش لأَهْوَنُ تلك التضحيات التي سَيُقدَّر لآل هذا البيت المجيد أَن يحملوها . ! !

من أَجل هذا ، لم يجد الرسول في وُسْعِه أَن يجيب « فاطمة وعليّا » إلى رغبتهما المتواضعة والمشروعة .

ومِن ثمَّ غطَّى وجه ابنته الحبيبة بنظراته الآسِيةَ والحانية ، وقال يخاطبها :

« لا ، يافاطِم . .

« لا أُعطيك ، وأَدَعُ فقراءَ المسلمين . . ! ! »

ثم اقترب منهما ، وطوَّقهما بذراعيه ، وقال لهما ، وعلى فمه ابتسامة كضوءِ الفجر :

(ألاَ أَدلُّكما علىَ خيرٍ من خادم . . ؟

إذا أَوَيْتُما إلى مَضْجَعِكُما ؛ فَسَبِّحا الله ثلاثا وثلاثين . . واحْمَداهُ ثلاثا وثلاثين . .

وكَبِّراه أَربعاً وثلاثين . . فذلك خير لكما من خادم) . . ! !

إذا نحن جاوزنا شكل هذه الواقعة إلى جوهرها ، أَدركنا المغزَى العظيم لها ، وأَدركنا كذلك ، الدوْرَ المجيد والوحيد الذي كان على أَهل بيت النبي أَن يقوموا به غير منتظرين عليه أجراً ، ولا مُتعلِّلين براحة . . ! ! !

وإذا كانت هذه الواقعة ترينا كيف كان الرسول يُزكِّي هذا المبدأَ في أَفئدة آل بيته ، ، فإنها لم تكن الواقعة الوحيدة في هذا المجال . . بل هي واحدة من وقائعَ كُثُرٍ كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصوغ منها أُسلوبه في إعداد أَهل بيته لِدوْرهم العظيم ، هذا الدَّوْر الذي ستكون الضحية لُحمتَه

وسداه . .

في يوم آخر . وكان يوم فتحِ مكة . ذهب « عَليٌّ » إلى رسول الله يسأله أن يمنحه حِجابة البيت الحرام

وكانت الحجابة وظيفةً تتوارثها من قديم إحدى عائلات قريش

ولم يكن ابنُ عم الرسول حين تَمنَّاها ، يطمح إلى مَغنم أوعرض من أعراض الدنيا الزائلة .

إنما كان يرجو أن يذهب بشرفِ حَمْلِ مفاتيح بيت الله الحرام .

هنالك تقدم من الرسول الذي كان جالساً وسط أصحابه : تقدم ومَفاتيحُ المسجد والكعبة في يمينه وقال :

« يا رسول الله . .

اجعل لنا الحِجابة مع السِّقايَةِ ، صلىً الله عليك » . .

وابتسم الرسول ابتسامته العَذْبة المعهودة في مثل هذه المواقف . وبسط يمينه المباركة نحو ابن عمه ، آخِذاً منه المفاتيح ، ثم نادى ، وبَصَرُه يجول بين الناس :

(أَين عثمانُ بن طَلْحَة) . . ؟ ؟

وكان « عثمان بن طلحة » هو القائم يومها بوظيفة الحجابة هذه . .

ونهض « ابن طلحة » قائماً ، يلبي نداء رسول الله وألقى الرسول بالمفاتيح إليه ، وقال :

(هَاكَ مفْتاحَك يا عثمان . . اليوم ، يوم برٍّ ووفاء) . .

ثم الْتفَت إلى ابن عمه « عَليٍّ » وقال :

(إنما أُعطيكُم ماتُرْزَأُون ، لا ماتَرْزَأُون) . . ! !

يالَهُ من درس . . ويالَها من نُبوءَة . . ! !

أَجل . . هذا هو دَور آل محمد في الحياة . . التضحية ، بكل ماتتطلبه من شَظَف ، وتَبَتُّلٍ ، واسْتِغْناء . .

لا شيْ دون التضحية ، ولا شيْ سواها . .

أَما الدنيا بكل زينتها وزخرفِها وإِغرائها ؛ فهي أَهونُ على الله من أَن يجعلها لهم مَثُوبَةً وأَجرا . . ! !

إن عليهم في هذه الحياة أن يقوموا بدور واحد . عليهم أَن يقْضُوا أَعمارهم كلها فوق « مِنَصَّةِ الأُستاذية » ؛ ليعلموا

الناس فنًّا واحدا . . هو فن التضحية والفداءِ . أروع وأصدقَ ما تكون التضحية ، ويكون الفِداءِ . . ! ! !

* * *

على هذا النَّسَق الرفيع الباهر ، ربى الرسول الكريم « عليا وفاطمة » الأبويْنِ اللذين سيجيُ من أَصْلابهما ، الحسن والحسين، وزينب ، وبقية الأَبناءِ والحفَدَة المباركين . الذين سنطالع على صفحات هذا الكتاب جَلالَ ما بذلوا مِن تضحية . . وروعةَ ما صنعوا مِن بُطولَة . . ! !

لقد ربَّاهما كما رأَينا على التحمُّل والتضحية . . وصحيح أنه ربِّى جميع أَصحابه على ذلك . . بيْدَ أَنَّه كان يطالب ذويه وأهلَ بيته بأَن يبلغوا في هذا المجال أَرفع مستويات التفوُّق والنبوغ .

فالقدوة التي يجب على « فاطمة » أَن تُعطيها الآخرين . بوصفها بنت رسول الله . .

والقدوة التي يجب علَى « عليٍّ » أَن يمنحها الآخرين ، بوصفه ابن عم الرسول ، وتلميذَه الأَوَّل ، وزوج ابنته ، ووالدَ أَحفاده . .

هذه القدوة المنتظرة منهما ، تختلف في نوعها وفي درجتها . ، وتتفوَّق في نوعها ، وفي درجتها . .

ولئن كانت القدرة في عُرف البشر « تجسيداً » للمثُل العليا التي أبدعها الانسان واكتشفها ؛ فإنها كما علم الرسول آل بيته وأصحابه « تجسيدٌ » للربَّانِيَّة التي يريدها الله . ! !

وها هو ذا القرآن العظيم يهتف فيهم :

(كونوا – ربَّانِيِّينَ – بما كُنْتُم تُعلِّمونَ

الكِتابَ ، وبما كنتم تَدْرُسُون) .

فالرَّبانية وحدها ، هي التي تضفي على العظمة الإنسانية رُواءَ الصدق ، والإخلاص ، والنُّسُك . .

وهي التي تجعل من التضحيات رُشْداً ورضوانا . .

ولقد كانت القدوة التي تركها « عليّ وفاطمة » والتي سيتركها « بنوهُما » من بُعدهما رائعةَ الإتساق مع هذه الغاية الفريدة ، وذلك المستوى البعيد

لقد كرَّسوا حياتهم للحق ، أَعظمَ ما يكون التكريس . .

وضَحَّوا في سبيله ، أَصدقَ ما تكون التضحية . .

وإذا كان أكثر ما يُجبِّنُ الناس عن التضحية ، هو حب المال وحب الحياة . . فإن آل بيت الرسول . . هولاءِ البررة البواسل الأطهار ، قد عرفوا كيف يستهينون بالمال ، ويستهينون بالحياة . . ! !

لقد رأينا ، كيف كان « علي وفاطمة وأبناؤهما » يعيشون في خصَاصَة وشَظَف . .

ألاَ فلْنَعْلَمْ أَن هذه الخصاصة لم تكن عليهم ضربةَ لاَزِب . . بل كانت من صُنع أيديهم واختيارهم . .

فنصيب « عَليٍّ » من الفَيْءِ ومن الغَنائم كان عظيما . . لكنه ما كان يُبقِي عليه ، ولا يَدَّخِر مِنه .

إنما كان يأخذ منه مثل حَسْوِ الطائر . . ثم يَهبُ بقيَّته في سماحٍ وغبطة مِسْكيناً ، ويتيماً ، وأسيرا . . ! !

ولطالَمَا كان يعمد إلى الطعام المقِلِّ الذي يحتاجه لغذائهما طفلاه « الحسن والحسين » ، فيتصدق به على شيخ هرمٍ ، أو أرملة ، أو يتيم . .

وستكون هذه طريقة أولاده وشيمَتَهم حين يكبرون . .

فبعد قليل ، سنرى « الحسن » وقد كثر راتبه وعطاؤه ، أيام

« معاوية » يُقاسم الله أمواله . . ! ! وكذلك سنرى « الحسين » . . سنراهما ينفقان عطاءَهما في سبيل الخير ، في سخاوَة نفس نادرة المِثال .

فإذا دُعُوا إلى التضحية بالحياة بعد التضحية بالمال ، جادُوا بأنفسهم ، وباعوها صفقةً رابحةً وغاليةً ومتواضِعة لله رب العالمين . . ! !

إنهم للتضحية خُلِقوا . . وللفداءِ عاشوا . .

ولقد يخدعنا الفهم الزائـغ لموقفين وقفهما « عَليٌّ وفاطمة » فنرى فيهما جُنوحًا عن المبدأ العظيم الذي قامت عليه حياتهما .

هذان الموقفان هما :

- موقف « السيدة فاطمة » من حقها في ميراث النبي
- وموقف « الامام علي » من بيعة الصدِّيق أبي بكر

* * *

إن النظرة السريعة المتعجِّلة لهذين الموقفين ، تُوقع أصحابها في وهم كبير ، فيحسبونهما عَرَضًا من أعراض التطلُّع إلى الدنيا والحفاوة بها .

فأما عن موقف الأول ، فلم يكن لدَى النبي صلى الله عليه وسلم ما يُورَث .

لقد كان يمضي الشهر والشهران والثلاثة ، ما يُوقَد في بيته نار تطهو طعاماً . . ! !

ولقد لقي ربه ، ودِرْعُه مرهونة في حَفَناتِ شعير . . ! !

كل ما في الأمر ، أن المسلمين في بعض غزواتهم أصابوا أَرضا ، أمر الرسول أن تبقى في أيدي أصحابها . على أن ينال كل ذي حق فيها نصيبه من رَيْعِها .

وأفاءَ الله على رسوله من تلك الأرض – في خَيْبَر ، وفَدَك – قطعة صغيرة ، كان يُحمَل نصف رَيْعها إلى الرسول فيستعين به على معيشة بيته وأهله ، وأبناءِ السَّبيل .

ولما انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ، حوَّل خليفتُه الصدِّيق ذلك الرَّيْع إلى بيت مال المسلمين .

وطالبت به السيدة فاطمة بوصفها وارثة أبيها ، وغاضبت الخليفة من أجل صَنيعه ذاك . .

بَيْدَ أنَّها لم تكد تعلم من أبي بكر ، ومن غير أبي بكر من الأصحاب أن الرسول كان قد أعلن في حياته أن الأنبياء

لا يُورَثون ، حتى فاءَت إلى حكم الشرع وأذعنت لقرار الرسول ، وتَقبَّلت في رضًا وتسليم حرمانها من ذلك الرَّيْع الذي كانت في أشدِّ الحاجة إليه .

وهكذا أضافت إلى تضحياتها تضحية جديدة ، وفاءً منها وولاءً للحق الذي قامت عليه حياتها . . ! ! !

وأما موقف « الإمام علي » من بيعة « الصديق أبي بكر » رضي الله عنهما ، فما كان امتناعه عن البيعة أوَّل أمرها تحدِّيًا منه للمبادئ التي قامت عليها حياته الورِعة ، ولا نُكوصًا عن التضحية من أجلها .

بل كان في التحليل النهائيِّ له ، صورةً صادقة لاستقامة النهج في ضمير « الإمام » وسلوكه . ! !

لقد كان على اقتناع وطيد بأن خير الإسلام في أن يظلَّ لواؤه بيد واحد من بيت النبوة ، لا سيَّما في الفترة التالية لوفاة الرسول ، حيث يُخشَى أن تتحرك النزعات القَبَلِيَّةُ في أحشاءِ المجتمع من جديد ، مُتخِذةً من منصب الخلافة مجالَ تنافُسِها – الأمر الذي حدث فعلا يوم السَّقيفة ، إذ رأى بعض زعماءِ الأنصار أنهم أولَى بالخلافة . . ورأى المهاجرون أنهم أحق بها وأجدر . وكاد الخلاف يتفاقَم لولا أن بسط الله يده فوق عباده ،

وتحرَّك الضمير الديني الرشيد الذي غرسه الرسول في أفئدة أصحابه ؛ فذاب الخلاف فَوْرَ نُشوئِه في حرارة الإيمان وصدق اليقين . . ! !

ولم يكن « عليّ » في اقتناعه بأولوية بيت النبوة في الخلافة يبتغي لآل البيت امتيازًا خاصًا .

بل كان يرى ذلك امتدادًا لواجبهم نحو الدين الذي أكرمهم الله به .

من أجل ذلك ، نراه يجعل هذه الأولوية مشروطة بأن يكون في آل البيت من يُؤهله صلاحه وورعُه واقتدارُه لحمل تبعات المنصب الجليل .

ولقد صور اقتناعه هذا في وُضوح كامل من خِلال حواره مع الرَّاشِدَيْنِ « أبي بكر وعمر » فقال :

(إنكم تدفعون آل محمد عن مُقامه ومُقامهم في الناس ، وتُنكرون عليهم حقهم . .
« أما والله ، لَنحنُ أحقُّ بالأمر ؛ ما دام فينا القاريءُ لكتاب الله . . الفقيهُ في دين الله . .
العالمُ بسنن رسول الله . . المضطلعُ بأمر الرَّعيَّة . .

القاسِمُ بينهم بالسَّوِيَّة) . .

وفي كلماته للصِّديق حين وقف فيما بعد يُبايعه .

(يا أَبا بكر . .

« إنه لم يمنعنا من أَن يُبايعك إنكارٌ لفضلك ، ولا نفاسَةٌ عليك لخيرٍ سَاقَه الله إليك . . إنما كنا نرى أَن لَنافي هذا الأَمر حقًّا أَخذتموه .) (١)

على أنه - كرم الله وجهه - سرعان ما انضمَّ لإجماع الصحابة ، وبايع « الصدِّيق » بيعةَ صِدْق ويقين .

وسرعان ما أَثبت « الصدِّيق » ومِن بعده « الفاروق » أَنهما خير خَلَفٍ ، لأَكرم سلَف . .

ووقف « عَليٌّ » مع كلا الخليفتين يَبثُّهما الرأْي السديد ، والنُّصح الأَمين مما جعل أَمير المؤْمنين « عمر » يُشِيد بسداد رأْيه فيقول !

(لَوْلاَ عليٌّ ، لهَلَكَ عمر) . . ! !

هو إذن لم يكن ينشد الخلافة لدنيا يصيبها ، ولو أَرادها

---

(١) راجع كتابنا « في رحاب علي » .

لذلك لَطالَتْها في يُسرٍ يداه . . فلطالما حثَّه أبو سفيان يومئذ ، بل حرَّضه إثر مبايعة الناس أبا بكر على أن يتشبث بحقه في الخلافة . قائلا له : (إن شئت لأملأنَّها عليهم خيلاً ورجلا ، ولأسُدَّنَّها عليهم من أقطارها) . .

فما كان جواب الإمام العظيم إلا أن قال له :

(يا أبا حنْظَلة . .

إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا ، ولا من شِيَمِنا . .

ولقد سَدَدْتُ دونها بابا ، وطَوَيْتُ عنها كَشْحا) . . ! !

ولقد جاءَته الخلافة فيما بعد ، فما ذا كانت له . . وماذا كان لها . . ؟ ؟

أما هي ، فكانت له عِبئًا فادحًا ، ورُزءًا رهيبًا . .

وأما هو ، فكان لها المؤمنَ لا يصرفه عن مسئوليات إيمانه شيءٌ ، والفدائيَّ الذي لا تصرفه عن حب التضحية رغبة . . ولا تُجْفِلُه رهبة . . ! !

لقد كان قادرًا – لو أراد – أن يطوي بيمينه مائة حاكم من أمثال معاوية . . وأن يطوي بيمينه مائة شام ، لا شامًا

واحدة ! !

أجل . بقليل من الدهاءِ ، وبقليل من المسايَرة ، كان قادرًا على دحْضِ التمرد كله .

لكنّ صرامته في احترام مبادئه وتطبيقها جعلته يُؤْثِرُ المركب الصعب دومًا .

كان مؤْمنًا بأَن الحق يجب أَن يمضى في طريقه دون مُراوغة ، أومُسايرة ، أَودهاءِ .

وحين أشاروا عليه أَن يستبقي معاوية بعض الوقت واليا على الشام ريثما تقرُّ الأَمور وتهدأَ الفتنة ، صاح في مُشيريه قائلا :

(أتأْمُرونني أَن أَطلبَ النَّصْرَ بالجوْر . . ؟ لا والله ، لن يراني الله مُتَّخِذَ المُضِلِّين عَضُدا) . . ! !

هذا ، هو الرجل الذي ربيَّ « الحسَن ، والحسين » اللذيْن خاضا معه ، وخاضا بعده معارك الحق ، في سبيل أَن يبقى الدين دينًا . .

هذا هو الأَب الذي أَنجب أَبطالَ كَرْبَلاءَ ، الذين سنرى الآن من بُطولتهم عجبا . .

وهذا ، هو بيت آل النبي . . بيت القرابين والشهداءِ !.!

لقد نزل الوحي يومًا بهذه الآية الكريمة :

(إنَّما يُريدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْت ، ويُطَهِّرَكم تَطهيرا) . .

ومن فوره ، دعا الرسول إليه « عليا ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين » حيث دثَّرهُم بردائه ، وضمَّهم بحنانه ، وراح يقول في حُبورٍ عظيم :

(هؤُلاءِ أهلُ بيتي) . .

أفكانت الدنيا بكل إغرائها وبَذَخِها وغرورها ، هي الرِّجْس الذي أَذهبه الله عن آل هذا البيت الكريم ، فحالَ بينهم وبينها ببحارٍ من دمائهم الزكيَّة ، وجبال من تضحياتهم الشاهقة الفَتِيَّة . . . ؟ ؟ !

الفصل الثاني

النبوَّة ، لا المُلْك

. . والآن نقترب من جوهر القضية التي نَذَرَ « الإمام علي » لها حياته ، حتى قضى في سبيلها شهيداً .

والتي وهبها الحياة كذلك ، أبناؤه من بعده ، حتى قَضَوْا في سبيلها شُهداء . لا سيما ذلك البطل الممجَّد الشهيد « أبو عبدالله الحسين بن علي » . .

لقد كشف تمرد معاوية ، ورفضه مبايعة « الإمام علي » عن جوهر النضال الذي تحتَّم على الإمام أن ينهض بأعبائه

وكان السؤال الذي يفرض نفسه يومئذ على المجتمع الإسلامي كله ، هو ذا :

– لمن يجب أن تكون الغلَبَة ويكون البقاء . . ؟

للنبوَّة بكل هَدْيِها ، وورعها ، وجلالها الذي سوَّاه في أحسن تقويم وحيُ الله ومنهج رسوله . .

أمْ للمُلك بكل مَباذِخه ومَباذِله وتَسَلطه الذي باتت تُرهِص به على نطاق واسع أطماع الأمويين . . ؟ ؟

لقد كان أخشَى ما يخشاهُ « الإمام » أن تقوم في الإسلام

- دولة الطُّلَقاء - . . ! !

والطلقاءُ ، هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة راغبين أو راهبين . .

وبعض هؤُلاءِ ، حَسُن إسلامه وصفايقينه . .

وبعضهم بقي تحت جوانحه إلى الجاهلية حَنِين . .

وكانت الدولة المسلمة يومذاك ، وبعد أن فُتحت الدنيا لها وعليها ، بحاجة ماسَّة إلى حاكم من ذلك الطراز الرَّبَّاني . . بحاجة إلى واحد من أُولئك الرجال الذين يمثلون فضائل أيام الوحي وعصر النبوة . .

ولم يكن « الإمام علي » يومئذ الرجل الأفضل والأَمْثَل فحسب ، بل كان الرجل الأوحد الذي تتمثل فيه وتهيب به كل حاجات دينه وأُمته .

وكان الخروج عليه يومذاك يشكل خروجًا أكيدًا على عصر النبوة بكل ما يمثله من هُدى وعدالة ونور .

ولقد كانت بصيرة الإمام من النفاذ والصدق بحيث أبصَرتْ أَبعاد المصير إذا استقرَّ السلطان في أَيدي الأُمويين فلقد يهون الأمر . لو بدأ النكوص بمعاوية ، وانتهى به . . غير أن « الإمام » كان

يرى ببصيرته الصادقة أن الانحراف إذا بدأ ، فلن يُؤْذِن بانتهاء . .

وكان يرى أَن الأَمويين إذا أَفلحوا في تثبيت ملكهم المنشود ، فسيتحوّل التراث الجليل الذي تركه الرسول إلى مُلك عَضُوضٍ ودنيا جامِحَة . .

ومِن ثَمّ صار دَحْضُ هذه المحاولة التعسة واجب المؤمنين كافَّة .

وهذه كلمات أَبى سفيان التي يَجتَرُّ بها نوايا أُسْرته وقومه ، لاتدع مجالاً للشك في أَطماعهم وما يبتغون . .

فهو يُوصيِ أَهله وذويه قائلا : (لقد صار الأَمر إليكم فلا تدعوه يُفلِت ، وتلقَّفُوه كالكُرة . . فإنما هو الملك ولا أَدري ما جَنَّةٌ ولا نار) . . ! !

وهو يمرّ بقبر « حمزة عم الرسول » فيستعيد ذكرى الأَيام الماضية ويقول (يا أبا عمارة إن الأمر الذي اجْتَلَدْنا عليه بالسيوف قد صار إلى غلمان بني أُمية) . . ! !

وهو حتى من قديم ، لم يكن يرى في الاسلام إلا مُلْكا . . فيوم فتح مكة ، وقد صحبه العباس عمّ النبي إلى الرسول ليُسلم ، وينجو بحياته ، نظر إلى الكتائب اللَّجِبة العارمة تحمل رايات الإِسلام ، فإذا به ينظر إلى « العباس » ويقول : (لقد أَصبح

مُلْك ابن أَخيك عظيما) . . فيجيبه « العباس » رضي الله عنه :

(يا أَبا سفيان . .

إنها النُّبُوَّة ، لا المُلك) . .

أَجل . . هذا هو الفارق الكبير بين تفكير بني هاشم وتفكير بني أُمية . .

فبنو هاشم يرون الدين على حقيقته . نُبوةً ، وهُدى ، ونورا . .

وبنو أُمية يرونه من خلال أَمانِيِّهم وأَطماعهم . مُلْكا ، وتسلُّطا ، وسيادة . . ! !

وإن « الإمام عليا » لم يُخدع إذن عن جوهر الموقف الذي اتخذه معاوية حين رفض بيعة الإمام ، ولم يُخدع عن عواقب هذا الموقف إذا تركه المسلمون يستشري ويتفاقم .

وإذا كانت مقاومة هذا الجنوح الخطير واجبَ المؤمنين . . فَمَنْ أَوْلَى المؤمنين بهذا . . ؟

إنهم آل بيت النبي . . أَهل التقوى ، وأَهل التضحية . . ! !

وهكذا شَرع موكب التضحيات في مَسِيرة عالية ، كلها قِمم ومُرتفعات . . مُستهلاً بأَشرف تلكم القمم وأَعلاها . . حياة الإمام الرشيد الشهيد « علي بن أَبى طالب » رضي الله عنه

وأرضاه . .

ثم بحياة الشهيد الممجَّد والعظيم « أَبي عبدالله الحسين بن علي » ومعه عشرات من إخوانه ، وأَهل بيته وصحبه ، في يوم يجعل الوِلْدانَ شِيبا . . ! !

* * *

وهكذا ، لم تكن « كَرْبَلاء » مَلْحمةً ذات فصل واحد ، بدأَ وانتهى يوم العاشر من المحرم . .

بل كانت ذاتَ فصول كثيرة . بدأَتِ قبل كربلاء بسنوات طوال . . واستمرت بعد كربلاءَ دهرا طويلا . . ! ! !

أَجَل . . لقد بدأَت ملحمة كربلاءَ ومأَساتُها ، يوم تمّت خُدعة التحكيم ، وحين وقع التمرد الرهيب والفتنة العمياءَ في صفوف أَتباع الإمام ، ثم حين خلا الجَوُّ لراية الأُمويين داخل الشام ، وخارج الشام . . ! !

ولَكأَنَّما كان « الإمام علي » يرى ببصيرته الثاقبة كل ذلك المصير . . ! !

فذات يوم أَثناءَ مسيره مع جيشه إلى « صِفِّين » بلغ به السير هذه الرقعة من الأَرض ، فتمهَّل في سيره ثم وقف يتَملَّى

مشهد الفضاء الرهيب ، وسالَتْ عبرَاته من مآقيه ، واقترب منه أَصحابه صامتين واجِمين ، لا يدرون ماذا أَسال من مُقْلَتي الأَسَدِ الدموع . . ! ! !

ثم سأَلهم ويُمناه ممتدة صوب تلك الأَرض التي تعلقت بها عيناه :

– ما اسم هذا المكان ؟ ؟

قالوا : كربَلاءَ

قال :

(هُنا محَطُّ رِحالهم
ومُهْراقُ دمائهم) . . ! ! !

واستأْنف سيره مع المقادير . .

تُرى من كان يَعني . . ومن كان ينْعَى . . ؟ ؟ أَكان يعني قُرة عينه « الحسين » ومن معه من إخوةٍ له وأَبناء . . ؟ ؟

أَكان يعني أُولئك الأَبطال الذين ستشهد هذه الأَرض ذاتها استشهادهم الرهيب والمَهيب بعد عشرين عاما لا غير من هذه النبوءَة الصادقة . . ؟

رُبما . . .

ورُبما لم يَكن إلْهامُه ولم تكن بصيرته يومئذ مُعلَّقَيْن بواحد

بذاته من أهل بيته المباركين .

فهو على أية حال كان يدرك تماما أن المعركة التي بدأها من أجل الحق لن تنتهي . .

ويدرك أنه لن يصبر أحد من بعده على لأوائها وضراوتها مثلما سيصبر أبناؤه الذين ورثوا البطولة كابرًا عن كابر . . !

وحين يحتدم في البصائر النقيّة وَلاؤُها لِحقٍّ مقدس ، أو لمبدءٍ جليلٍ ، فإن هذا الاحتـدام يتلقى في لحظـة إشرق روحيٍّ مددًا من الرؤْية غير منظور ، يكشف الغيب ويجذب إلى دائرة الاستشراف أحداث الزمن البعيد . . ! !

ولعلَّ شيئا كهذا ، حدث ذلك اليوم ، فرأى الإمامُ التقيُّ النَّقي بلاءَ أبنائه وحفدته . رأى بلاءَهم العظيم في سبيل القضية التي حمل لواءَها ، ورأى « مَحَطَّ رحالهم ، ومُهراق دمائهم » . . !

* * *

القضية إذن ، كانت كما قلنا ، قضية « النبوة » لا « الملْك » . .

النبوة بكل تألّقاتها الورعَة ومَوازينها العادلة . . لا الملْك الذي يريد نفر من الأمويين أن يردُّوا به وثنية الجاهلية في أثواب

تنكُّريَّة . . ! !

والذين يدرسون معارك « الجمَل ، وصِفِّين ، وكَربَلاءَ » خارج هذه الدائرة ، لا يأمَنون عَثارَ تفكيرهم ، وزَيْغَ أحكامهم .

ولقد رأينا كثيرين ممن تحدثوا عن « كَرْبَلاء » يُحمِّلون « الحسين » مسئولية مصيره ، ومصير الذين خرجوا معه . . ! !

و « الحسين » رضي الله عنه ، يتحمل في شجاعة وغبطة مسئولية ذلك المصير ، ولكن ليس بالمعنى الذي يقصده هؤلاء . .

فهم يرون أنه خرج تلبية لدعوة ثوار الكوفة إياه ، باعتبار هذه الدعوة فرصة رآها سَانِحةً لاسترداد الخلافة من بيت معاوية إلى بيت الإمام . .

وهم يلومونه ، أو يكادون ؛ لأنه لم يُصغ لِنُصْح الناصحين من عشيرته الأقربين ؛ كي يبقى مكانه في البلد الحرام « مكة » نافضاً يديه من مشاكل الموقف الكالح الذي نتج عن استخلاف يزيد . .

فهل كان ذلك كذلك . . ؟ ؟

أبدا . .

وإن الأمر لَمختلِفٌ جدا . .

فالقضية في ضمير « الحسين » لم تكن قضيةَ فرصةٍ سَنحتْ . . ولا هي قضية حق شخصيّ في الخلافة يبتَغي استرداده . . ولا هي من القضايا التي يكون للإنسان الرشيدْ حق التخلي عنها . . !

القضية في ضمير التقيُ الشُّجاع ، كانت قضيةَ دِين . . ويستوي عنده تَخلِّيه عن هذه القضية ، وتخليه عن هذا الدين . . !

صحيح أَن « الشكل الخارجي » للقضية ممثَّل يومها في استخلاف يزيد . . لكنّ « جوهرها » الصحيح كان واضحا أَمام وعي « الحسين » ورُشْدِه ونور بصيرته – تماماً كما كان واضحا من قبل أمام وعي أَبيه الامام ، وأَمام رُشده وبصيرته ، . . ! !

واستخلافُ يزيد على هَوانِه ، لا ينفي عن القضية موضوعيتها العميقة ، ولا يقلل من تبعة النهوض بها ، بل هو يزيد من إلْحاح هذه التبعات .

فـ « يزيد » هذا ، لا يمتلك ذرَّة من الصلاحية التي تؤهله لأَن يجلس من الأُمة المسلمة حيث كان يجلس من قبل « أَبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي » . . ! !

لقد كانت خلافةُ واحد من طرازه أَدهَى كارثة تنزل بالدولة وبالأُمة .

لا سيما ، وهو يُستخلَف في عصر لا تفصله عن عصر النبوة

والوحي سوى سنوات معدودات . . وفي جيلٍ لا يزال يحيا فيه رجال شامخون أبرار من أصحاب رسول الله أمثال (عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن عباس ، والحسَن ، والحسين ، وعبدالله بن الزُّبَيْرِ ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبي الدَّرْدَاءَ ، وقيس بن سعد بن عبادة) . . ! ! !

ولئن كان هناك من خِيار الصحابة والمسلمين من سكَن لهذا الوضع الأليم بعد وقوعه ، فإنهم لم يفعلوا عن رِضًا واقتناع ، بل عن رغبة في تجنيب المسلمين مزيدا من الحروب والآلام والدماء — الأمر الذي لم يتردّد « الحسَن » نفسه عن النهوض به — من قبل — حين تنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية ، على النحو الذي سنراه عما قريب . .

ولو أن معاوية وفّى بالعهد الذي أبرمه مع « الحسن » أمام المسلمين كافّة ، فترك الأمر من بعده لمشورة الناس واختيار الأُمّة ؛ لتغيّر موقف « الحسين » ولتغير بالتالي مجرى الأحداث .

* * *

إننا الآن نستطيع أن نبصر عدالة القضية التي ناضل دونها الإمام وأبناؤه ، أكثر مما كان مُتاحًا لمعاصريها . . فهم كانوا ينظرون إليها من خِلال حَدْسِهم وتقديرهم لاحتمالات المستقبل حين

يستقر الأَمر لبيت أَبي سفيان ، وحين تنتهي إلى أَيدي أَبنائه مصاير الإسلام والمسلمين .

أَما نحن اليوم ، فالأَمر بالنسبة لنا ليس أَمر حَدْس أَو احتمال..

إنَّ ما كان حَدْسًا بالأَمس ، قد صار حقيقة . .

وما كان احتمالاً وظنًا ، أَصبح واقعًا وتاريخا . .

فها هو ذا معاوية ، لا يكتفي باغتصابه الخلافة ، ثم لا يرغب وهو على وَشْك لقاء ربه في التكفير عن خطئه ، تاركًا أَمر المسلمين للمسلمين . . بل يُمعن في تحويل الإسلام إلى مُلْكٍ عَضوض وإلى مزرعة أُمَوِية . . ! !

فيأخذ البيعة ليزيد كولِي عهدٍ له . . يأَخذها بالذهب ، وبالسيف . .

ثم ها هو ذا يزيد يتربع على عرش أَبيه بعد وفاته ، فيهمل أَمر المسلمين ، ويعكف على اللهو بفُهوده وقُروده حتى يلقَّب بـــ « يزيد القرود » . . ! !

ثم يسلط من قواده ورجاله من يُنزلون بالعباد والبلاد من الهول ما يخجل الشيطان نفسه من اقترافه . . ! !

فابن زياد . في الكوفة والبصرة ، يحزُّ رأْس كل من تُسَوِّل

له نفسه أن يقول : لِمَ . . ؟

ثم يقتل أبناءَ الرسول وأحفاده وآل بيته في كربلاءَ قتلاً تناهَى في البشاعة والرِّجْس . .

ومسلم بن عقبة ، مبعوث يزيد إلى المدينة المنورة دار الهجرة ووطن الأنصار وعاصمة الإسلام ، يصنع بها وبأهلها من الوحشية والجريمة ما يتَعاظَمُ كل وصف . .

وحتى مكة بمسجدها الحرام ، يُرسل إليها « يزيد القرود » من يستبيحها ، ويستبيح مسجدها الحرام .

ثم حين يختفي بيت أبي سفيان بموت يزيد ، ويسطو على الخلافة بيت مروان ، وهو شعبة أُخرى ، وامتداد آخر للأُمويين . . يظهر الحجّاج لينشر الخراب والدمار والقتل في كل مكان باسم الأُمويين ، وفي سبيل دعْم مُلكهم ووثنيهم . .

هذه الأَهوال كلها ، التي نراها نحن اليوم بعد وقوعها ، كان الإمام علي يُحسُّها ببصيرته قبل وقوعها . .

كان بإلْهامِه الصادق يرى كل ذلك المصير : فقام قومته ليمنع الكارثة قبل نزولها . . ! ! !

وقام من بعده ابنه العظيم « الحسين » ليمنع امتداد الكارثة

واستمرارها . . ! ! !

وهكذا نرى أَن معركَتهم الجليلة الباسلة . لم تكن معركة حق شخصي في الخلافة . .

ولا معركة ثأرجاهلي قديم . . .

* * *

إن الذي أَدركه الإمام . . قبل وقوعه ، فنَهض يتحاماه ، كان يدركه معه أُولئك الذين وقفوا في صفه ، وصمدوا معه إلى النهاية في إخلاص مَكِين .

أَدركه الصحابي الجليل « عمَّار بن ياسر » الذي قال عنه الرسول :

(اهْتدُوا بِهدْي عمّار) . .

والذي قال عنه أَيضا :

(تَقتل عمارًا الفِئةُ الباغِية) . .

والذي أَجمع الصحابة بلا استثناء ، وفيهم معاوية ذاته على فضله وورعه وصدق نهجة وعظمة رُوحه .

أَدرك « عمّار » نفس المصير ، وآمن بذات القضية ، فصمَّم على الخروج للقتال مع « الإمام علي » . . مع أَنه يومئذ كان قد

جاوز التسعين من عمره .

إنه لم يجد عملا أفضَل من ذلك العمل ، يختم به حياته المجيدة ، فراح يصول ويُقاتل ، مُلخِّصا إيمانه بقداسة القضية التي رفع « الإمام » لواءَها في هذه الكلمات المضيئة الثائرة : —

« أيها الناس . .

سيروا بنا نحو هؤلاءِ القوم الذين يزعمون أنهم يَثأرون لعثمان ، ووالله ما قَصْدُهم الأخذ بثأره ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها ، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرّغون فيه من شهواتهم ودنياهم . .

« وما كان لهؤلاءِ سابقة في الإسلام يستحقون بها طاعة المسلمين أو الولاية عليهم . .

« ألاَ إنهم ليُخادعون الناس بزعمهم أنهم يَثأرون لدم عثمان . .

وما يريدون إلا أن يكونوا جَبابِرَةً وملوكا . . ! !

« والذي نفسي بيده ، لقد قاتلتُ بهذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وها أنذا أقاتل بها اليوم . . ! !

« والذي نفسي بيده ، لو هَزَمونا حتى يبلغوا بنا سَعفَاتِ هَجَر ، ما وهَنَ يقيني بأننا على الحق وأنهم على

الباطل » . . ! !

إنها قضية تفوّقتْ بعدالتها و بقداستها حتى على النصر ذاته . . !

فلم يعد النصر مَزِيَّةً لها . . كما لن تكون الهزيمة إِزْراءً بها . !

هكذا عاشت في ضمائر أهلها وشهدائها . . كما عبَّر وصوَّر . .

عمَّار بن ياسِر . . في كلماته السالفة :

(والذي نفسي بيده ، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعفاتِ هَجَر ، ما وهَنَ يقيني بأَننا على الحق وأَنهم على الباطل) . .

* * *

وإذا كان للحديث بقيّة تزيدنا إدراكًا لِقداسَة القضية التي ذهب « الحسين » شهيدًا لها ، كما ذهب أَبوه « الإمام » من قبل شهيدها . . وكما ذهبت معهما ثُلَّةٌ مباركة طاهرة من صفوة المؤمنين والأَصحاب ، فلتكن هذه البقية شهادةَ شاهدٍ من أَهلها . . ! !

وهذا الشاهد هو : (معاوية بن يزيد) ثالث خلفاء بني أُمية .

فقبل أَن يموت – يزيد – في العام الرابع والستين للهجرة ،

خلَع الخلافة ، أو بتعبير أصَحّ خلَع المُلك على أكبر أبنائه – معاوية – الذي عُرف باسم « معاوية الثاني » :

وكان « معاوية » هذا ، شابا تقيًّا ، ورِعًا ، عابدا . .

وسبحان مَن يُخرج الحيَّ من الميِّت ، والهُدَى من الضلال . !

وعلى الرغم من أنه تسلَّم الملك شابا لم يجاوز الخامسة والعشرين ، فإن تقوَى روحِه ، كانت أقوى من إغراءِ شبابه ، فلم يلبث في منصبه إلا بضعة أشهر حتى ضاق به ، ودعا المسلمين إلى مؤتمر مشهود ، ونهض يخطب الجمع الحاشد فقال :

(أيها الناس . .

إن جَدِّي معاوية ، نازع الأمر أهلَه ، ومَن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته في الإسلام ، هو : علي بن أبي طالب . . .

« ولقد ركب بكم ما تعلمون حتى أتته منِيَّته ، فصار في قبره رهين أعماله . .

« ثم تقلد أبي – يزيد – الأمر من بعده ، فكان غيرَ أهلٍ له . . رَكِب هواه ، وأخلَفه الأمل . . وقصر به الأجل ، ثم صار في قبره رهين ذنبه ، وأسير جُرمه . ! !

« وإن من أعظم الأمور علينا ، عِلْمنا بسوءِ مُنقَلبه ، وقد

قتل عِتْرَةَ رسول الله ، وأباحَ الحرم ، وخــرَّب الكعبة . . ! !

« وما أَنا بالمتقلِّد أَمْرَكُم ، ولا بالمُتَحَمِّلِ تَبِعاتِكم فاختاروا لأَنفسكم . .

« والله ، لئن كانت الدنيا خيرا فلقد نِلْنا منها حَظًّا . . ولئن كانت شرا ، فكفَى ذرية أَبي سفيان ما أَصابوا . .

« أَلآ فَلْيَصلِّ بالناس حسَّان بن مالك ، وشاوِرُوا في خلافتكم ، يرحمكم الله) . . ! ! !

ثم غادر منبره إلى داره ، ولبث بها عاكفًا على عبادة الله ، حتى لَقيه راضيًا مَرْضِيًّا . .

إن هذه الكلمات التي قالها « معاوية الثاني » ابن – يزيد – وحفيد – معاوية بن أَبي سفيان – لَتُشكِّل برهانا باهرا على عدالة القضية التي هي في غنى عن كل بُرهان . .

وهذا الشابّ الصالح الذي أَثقلت ضميره الحرَّ أَوزارُ آبائه . قدَّم بموقفه ذاك . . أَو بالأَحرى قدَّم القدرُ به وبموقفه ، وثيقة الإدانة كاملة وصادقة لأُولئك الذين وقفوا من الإمام ، ومن أَبنائه ، ومن القضية التي حملوا مِشعلها ، مواقف الكيد والعداء .

وإننا اليوم ، وبعد مضي ما يقرب من أَربعة عشرَ قرنا على

ذلك الصراع ، لَنَجِدُ حرارة الصدق ووضوحَ الحق في موقف « الإمام علي » من « معاوية » . . ثم في موقف « الحسين » من يزيد . .

إننا نتصور عصر النبوة ، كما كان في عهد مُنشِئه وبانِيه « محمد رسول الله » صلى الله عليه وسلم .

ثم نتصوره كما كان في عهد خليفتيه النادريْن الباهريْن « أبي بكر ، وعمر » ، فنرى جلالاً يَسحر القلوب والألباب . ! !
ويأخذنا الأسىَ ونحن نرى بعضَ الغواشي تغشَى ذلك الجلال في عهد « عثمان » لا بسبب قُصور في صلاحه وتقواه . . بل بسبب ذلك النفَر من الأمويين الذين أساءوا استغلال سلطانهم . . وكذلك بسبب عوامل تاريخية كان لها دورها المسئول (١) .

ثم تُشرق الآمال في عودة ذلك الجلال لمطالَعِه العظيمة ، وتألُّقاتِه الباهرة ، حين يُلقَى عبءُ الخلافة على سليل بني هاشم ، وتلميذ الرسول ، وبطل الإسلام « علي » . . ! !

ذلك أنه – كما تُطالعنا سيرته – كان رغم كل الفتن التي سبقت خلافته وصاحَبَتْها ، قادرًا على إرجاع السيادة لفضائل عصر النبوة .

---

(١) راجع كتابنا « وداعًا ، عثمان » . .

فدِينهُ ، وورعه ، وزُهده ، وعِلمه ، وإخلاصه ، وإخبات رُوحِه ، واقتدار عزمه . . .

كل ذلك – وكم كانت حظوظه منه وافية – هيأه بفضل الله ونعمته ، ليكون في تلك الأيام التي تَلَقَّي فيها أعباءَ الخلافة ، الرجلَ الذي ينتظره زمانه ، ومكانه . . وتنتظره المناسبة على فاقَةٍ إليه وشوق . . ! ! !

أجل . . . لقد كان بشخصيته وبسلوكه وبأخلاقه وبضميره وبدينه ، من أقدر العالمين على تجسيد عصر النبوة . . بكل قِيَمِه السامية وفضائله العالية . .

* فهو رَجلٌ وَرعٍ من أرفع طراز يدخل الكوفة بعد استخلافه ، فيرفض أن يسكن قصر الإمارة الباذخ ويقول : « إنه فتنة » .. ثم يأوِي إلى بيت من طوب نيءٍ يشبه أكواخ الفقراء .. ! ! ويعمَد إلى بيت المال فيخرج ما فيه ويوزعه على مُسْتَحِقِّيه . ثم ينضحه بالماء .. ثم يُصلِّي فيه لله رب العالمين إيذانًا بأن المال في عصره لن يكون فتنة .. بل سيكون رحمة ! ! !

* * *

* ورجَل صِدق وشرَف من أرفع طراز = يقولون له إن معاوية يتألف القبائل والجماعات بالمال . فأعطِ الناس كما يعطى .. ؛

فيقسم أَنه لن يرشُوَ في الحق أَحدًا .. وأَنه لن يعطى مال الله الذي ائتمنه عليه لغير من يستحقه .. ! ! ثم يرجُونه ويُلِحُّون عليه أَن يدَعَ الولاة الأَمويين في أَماكنهم حتى يُبايعوه وحتى تستقر خلافته وعهده . فيرفضْ ويقول :

« لا ولله ، لا أَدَعْ اللهَ يسأَلني : لماذا أَبقيتُهم
وهم غير أَهلٍ لها ساعةً من نهار» ... ! ! ؟؟

* * *

ورجلُ ديمقراطية وشُورى من أَرفع طراز= يخضع لرأْي الأَغلبية في موضوع التحكيم ، وهو يؤْمن أَعمق إيمان بأَنه خدعة ستتلوها الكارثة . . ولقد حاول إقناع الذين معه بكل ما أُوتي من بلاغة وصدق . ولكن دون جدوى . . وعلى الرغم من أَنه آنئذ كان في حرب قائمة بالفعل مما قد يعطيه الحق في أَن يمضي مع اقتناعه . إلا أَنه انحنىَ في جلال وعظمة لحق الشورَى ورأْى الجماعة . . ! !

ويتكرر نفس الموقف حين جرى الحوار لاختيار من يمثلهم في التحكيم ؛ فلقد نادى قوم باختيار « أَبي موسى الأَشعري » وراح الإمام يُفنّد اتجاههم ، ويدعوهم لاختيار « عبدالله بن عباس » أقدر الناس على مواجهة الداهية « عمرو بن العاص » الذي سيمثل معاوية في التحكيم ، ولكنهم أَصرُّوا ، وكانوا أَغلبية ، فتخلىَّ

عن رأيه لرأيهم . . .

* * *

* ورَجُلُ عدالة ورحمة من أرفع طراز لقد كان في أمسِّ الحاجة إلى مؤازرة وُلاتـه في موقفه العسير . وكان ذلك يقتضيه الملاينَةَ في محاسبتهم . . لكنه يرفض دائما أن يطلب النصر بالجوْر . ! ! !

ومِن الجوْر عنده أن يتغافل عن أية هفوة من وُلاته ، وهكذا راح يحاسبهم بعدالة صَارمة ، حتى خسر نُصرَة الكثيرين منهم دون أن يُلقي لهذه الخسارة بالا . . ! !

وأي صورة للعدالة وللرحمة يمكن أن يرقى إليها حاكم كهذه الصورة التي يتجلى فيها « ابن أبي طالب » ودماؤه تنزِف وأجَلُه يُسرع ، وقد جيءَ إليه بقاتله ، فلا يشغل باله ولا يؤرِّق حيَاته في لحظات وداعِها سوى مصير قاتله . . وحين يقدر على الكلام تنفرج شفتاه عن هذه الكلمات :

« يا بني عبد المطلب . .

« لا أُلفيَنَّكم تخوضون في دماءِ المسلمين خوْضا ، تقولون : قُتِلَ أمير المؤمنين . .

« أحْسِنوا نُزُلَه . . يعني قاتِلَه . .

« فإن أَعِشْ ، فأنا أَولى بدمه قِصاصًا أَو عَفْوا . .

« وإن أَمُتْ ، فاضربوه ضربة بضربة . .

ولا تُمثِّلوا بالرجلَ ؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إياكم والمُثْلَة ، ولو بالكلب العقُور) . . ! ! !

* * *

* ورَجُلُ نُسُك من أَرفع طراز ، غزير الدمعة من خشية الله ، دائم الإخبات لله . . يلبس أَخشن الثياب ، ويأْكل أَجْشَبَ الطعام . . ويحيا بين الناس كواحد منهم . .

وكان نُسُكُه كخليفة يُتَمِّم نُسكه كَعابِد ، فكان يأْبى إلا مُشاركة الناس في كل ما ينزل بهم من ضُرّ وشظَف . . ويخص نفسَه من ذلك بالنصيب الأَوفى . . ! !

ولقد لَخَّص لنا نُسُكَ خلافته وإمارته في هذه الكلمات :

« أَأَقنع من نفسي بأَن يُقال أَمير المؤمنين ، ثم لا أُشارك المؤمنين في مَكارِه الزَّمان . . ! ! ؟

« والله ، لو شئتُ لَكان لي مِن صفْوِ هذا العسل ، ولُباب هذا البُرّ ، ومَناعِم هذه الثياب . .

« ولكنْ ، هيهاتَ أَن يغلبني الهوى ، فأَبيتُ مِبطانا

وحولي بُطون غَرْثَى ، وأكبادٌ حرَّى » . . ! ! !

* * *

هذه الومضة من حياته ومن عظمة منهجه وسلوكه ، تصور على نحو متواضع ، القضية التي نهض يقاتل من أجلها . . قضيةَ استمرار عصر النبوة بكل فضائله ومزاياه ؛ وإنها لقضية جديرة بولاءٍ لا ينتهي ، وتضحيات لا تفنى . . وهي لم تكن بالنسبة للإمام « عَليٍّ » قضية خاصَّة ، ولا قضية شخصية . بل هي قضية الإسلام كله ، وقضية كل مُؤْمن أوَّاب .

وإذا كانت الأقدار ستُؤْثِره وأبناءَه من بعده ، بأن يكونوا أعظم شهدائها وأشرف قرابينها ؛ فلتكن مشيئة الله . .

إن هناك من يموتون من أجل الباطل . ومن يموتون في سبيل الحق . فما مزية الحق على الباطل في مجال التضحية والفداءِ . . ؟ ؟

مزيته أن ضحاياه شريفة ورفيعة وغالية . . بينما ضحايا الباطل صغيرة دنيئة مُحقَّرة . . ! !

فليكن هو وأبناؤه شرفًا للحق في مماتهم واستشهادهم ، كما كانوا شرفًا له في مَحْياهُم . . ! !

وهكذا كان من الصعب عليه ؛ بل من المستحيل أن يترك قضية الإسلام للأهواءِ التي هبَّت عليه جائحة ، جامحة ،

كانت « المُهادنة » مستحيلة . .

وكانت « المُسايرة » أكثرَ استحالة . .

ولم يكن أمامه سوى أن يحمل سيفه وكَفَنَه ، ثم يمضي . .

فللمسئوليات العِظام خُلِق . . وللتضحيات يعيش . .

وإنه لسليلُ بيت ، كانت العظمة دِثارَة ، حتى في الجاهلية وقبل الإسلام . .

وإنه لَتلميذُ دينٍ نشأَ ، ونما ، بين أروع التضحيات وأشرفها وأَسماها . .

وإنه لَحَوارِيٌّ رسولٍ جعل صلاته ، ونُسُكَه ، ومحياهُ ومماتَه لله رب العالمين . .

فأَين يذهب من هذا كله . . ؟ ؟

وأَين يذهب منه أبناؤه الذين ربَّاهم على نهجه ، وغذَّاهم بفدائيته . . ؟ ؟ .

وماذا ينتظره وينتظرهم من أخطار . . ؟ ؟

الموت . . ؟ القتل . . ؟ الشهادة . . ؟

لِيأْتِ الموت ، ولْيأْت القتل ، ولْتأْت الشهادة . ! ! !

لِيَجِيْ ذلك كله مرة ، وعشرا ، وأَلفًا . . فذلك دَورهم في

الحياة : أَن يُعلِّموا الناس في جيلهم وفي كل الأَجيال ، أَنَّ الوقوف إلى جانب الحق ، والتضحية المستمرةَ في سبيله هما أَصدق مظهر لشرف الإنسان وقداسة الإنسان ! ! . . . .

أَلَيْسُوا آلَ بيتِ الرسول الذي قال :

« والذي نفسي بيده ، لَوِدِدْتُ أَنْ أُقتلَ في سبيل الله ، ثم أَحيا ، ثم أُقتل ، ثم أَحْيا ، ثم أُقْتَل » . . ! !

بلىَ . . إنهم أَهله وأَبناؤُه . .

ولقد حَملوا مصايرهم فوق أَكُفِّهم ، ومَضَوْا إلى مسئولياتهم في حُبور . . ! !

لم يكن هناك ما يُزعجهم ، سوى أَن الحرب التي يخوضونها مضطرين ليست من نوع تلك الحروب التي كانوا لا يلاقون فيها سوى جيوش الوثنية والشرك . فيفلُّون سلاحها ، ويُسوُّون أَقدارها بالتراب . . . ! !

ورغم ضراوة الظروف التي فرضَت عليهم القتال ، ورغم إلْحاحِها الدائب ، فإن إيمانهم بأَهمية السلام لم يَعْدَم من يُجَسِّده من آل البيت ، فيقدم في سبيل حَقن الدماءِ تضحية أُخرى عظيمة . . ! ! !

ذلكم ، هو « الحسَن بن علي » رضي الله عنه وأَرضاه

فإلى الكوفة ... لنشهد موقفه ، ونَقْفُو خُطاه . .

الفصل الثالث

السَّيِّد، يَفرِض السَّلام

عندما كان « الإمام علي » يجود بروحه الطاهرة على أثر ضربة غادرة تلقّاها من مُغتال أثيم ، سأله بعض أصحابه أن يستخلف عليهم مَن يختار من أبنائه وأهله ؛ فأبى . . ودعاهم أن يختار الناس بعد موته مَن يُحبون ويرتضون .

أجَل . . لم يوصِ لأحد من أبنائه بالخلافة ، فقد كانت هناك وصية أخرى تشغل باله ، ويدَّخرها لهم . فدعا إليه « الحسَن والحُسَين » وقال لهما :

(أوصيكما بتقوى الله . .
ولا تَبْغِيَا الدنيا ؛ وإن بَغَتْكُما . . ولا تأسَفا
على شيء منها زُوِيَ عنكما . .
« افعلا الخير . .
« وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم عونا) . . ! ! !

كلماتٌ جديرة بصاحبها ، ووصيةٌ جديرة بِمُوصِيها . . ! !

* * *

وتَلَفَّت الناس حولهم ، فوقعت أعينهم وقلوبهم جميعا على

رجل واحد بَسطوا إليه أَيمانهم مُبايِعين . . كان ذلك الرجل الكريم « الحسن بن علي » . الذي كان أكبر أبناءِ الإمام الشهيد .

وتلقى « الحسن » البيعة على أثر فراغه من الصلاة على أبيه ودفنه .

تلقاها كارها . دون أن يتركوا له حق الخيار والاعتذار . إذ قام « قيس بن سعد بن عبادة » بطلُ الأنصار . والإسلام . فبايع « الحسن » . حيث تقدمت على أَثره الجموع الحاشدة ، ثم الجموع الوافدة . .

ولم يكد الأَمر يستقر للحسن . . ولكن لا . . ؛ فإن الأُمور يومئذ كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار ! !

ولقد كانت حُلْكَةُ الأَحداث تجعل من قبوله البيعة ؛ فالخلافة . تضحيةً من أكبر التضحيات .

ولعل شيئا مّا ، لم يُعِنِ « الحسن » على تقبلها مثلما أعانه ذلك الأَمر الذي وقَر في صدره منذ يَفاعته وشبابه .

ذلكم هو حبه الوثيق للسلام ، ونُبوءَة الرسول له منذ طفولته بأَن الله سيحقن به دماءَ المسلمين في يوم من الأَيام . . إن أَصحاب رسول الله يذكرون ذلك اليوم الذي صعد فيه الرسول منبره ، وقد وقد صحب معه حفيده « الحسن » وكان طفلا يحبو. حيث

أجلسه إلى جواره ، وضمّه إليه ، وقال :

« إن ابنى هذا سيّد . .

وعسَى الله أن يصلح به بين طائفتين من المسلمين »

والآن ، يجيءُ الأوان المناسب – أوْفَى ما تكون المناسبة – لتحقيق هذه النبوءَة الصادقة . ! !

وها هو ذا أمير المؤمنين « الحسن بن علي » يواجه الموقف بتقديرين :

أحدهما نابع من طبيعته وشمائله . .

وثانيهما ، • نبعث من ظروف المعركة وآثارها . .

فأما عن الأول ؛ فقد كان الحسن بطبيعته يوثر السلام على الحرب . وكان يألَفُ الأناة . ويختار في معالجة المشكلات أقربَ الحلول من السكينة والقَصْد . .

• وعلى سبيل المِثال ، نراه حين حُوصِرت المدينة في عهد الخليفة « عثمان » وحوصرت دار الخليفة نفسها ، واستنفد الإمام « علي » طاقته وجُهده في إطفاءِ الفتنة دون جَدْوَى . يتقدم هو لأبيه الإمام برأيه في أن يُغادر الإمام المدينة ؛ حتى لا يُقتل الخليفة وهو بها فيتخذها خصومه وحُسَّاده مادة للتشويش حوله . . ! !

• وكذلك حين استشهد الخليفة « عثمان » وعرَض الثوار

الخلافة على « الإمام علي » فرفضها ، ثم عُرضت على آخرين من الصحابة فلم يكن أمامهم سوى الرفض تأسّيًا بِعليٍّ . . ثم زحفت الفوضى تهدد كل شيْ ، فعاد الثوار إلى « علي » ومعهم قادة الصحابة المسلمين يلحون عليه بقبولها فقبلها مُكرها . . .

يومئذ ، كان للحسن رأي آخر يتّسق مع طبيعته ، فَحْواهُ أَن يرفض أبوه البيعة ، حتى تأْتيه بإجماع المسلمين من كافّة أَقطار الدولة . . ! !

ولقد كان يعلم أن البيعة تنعقد شرعا وعُرفا بمن حضر الحرمَيْن من المهاجرين والأنصار. لكنه إمعانًا في نُشدان السكينة وتجنّب الفتنة ، رأى أن يركب « الإمام » الصعب من الأمور ، وينتظر مهما تكن الظروف بيعة جميع الأَقاليم . .

* ومثَل ثالث : موقفه حين خرجت « السيدة عائشة » ومعها « طلحة والزُّبَيْرْ » إلى البصرة ، ليحرضوا أهلها ضِد قَتلة « عثمان » .

يومَها رأَى « الإمام علي » وقد أَصبح بحكم خلافته مسئول عن أَمن الدولة وسلامة الأُمة . . رأَى أَن يخرج وراءَ هذا الركب لِيلْوِيَ زمامة عمًّا عساه يُثير حربا أَهلية ، ويُشجع حكام الشام على التمرد والعصيان . . !

لكن « الحسن » استجابة لطبيعته المُسالمة ، رأَى أَن يبقى

أَبوه بالمدينة ، بل وأن يعتكف في داره حتى تمرّ الفتنة بسلام . . ! !

هذه المواقف الثلاثة تكشف عن طبيْعة صاحبها ، وعن مَدَى تعلُّقه بالأَناة ، وإيثاره السلام .

وأَما عن التقدير الثاني ، الذي أَزْجَتْه ظروف الحرب وآثارها ، فإن الحرب التي خاضها « الإمام عليّ » كانت قد فجَّرت من المشاكل والهموم ما يهدُّ الجبال .

وكانت آثارها المرهِقة ، قد أَجهدت المجتمع والدولة كليهما .

وكان « الحسن » وهو يتلقَّى البيعة بيمينه ، يرنّ في سمعه صدَى كلمات أَبيه الناقمة والآسِفة التي وجهها في أُخريات أَيامه لأَهل الكوفة الذين كانوا – وهم أَنصاره – أَشدَّ إرهاقا له من خُصومه . . ! !

« . . أَمَا والله لَودِدْتُ أَنَّ الله أَخرجني من بين أَظهُرِكم ، وقبضَني إلى رحمته من بينكم . .
فقد والله ملأْتم صدري غيظا ، وجَرَّعتموني الأَمَرَّيْن أَنفاسا ، وأَفسدتم عليَّ رأْيي بالعصيان ، حتى قالت قريش : إن ابن أَبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا عِلمَ له بالحرب . .

لله أَبوهم ! ! هل كان فيهم أَشدّ لها مراسا وأَطول

مُعاناةً مِني . . ؟ ؟ لقد نهضتُ فيها وما بلغت العشرين . . وها أنذا اليوم . وقد عدوْتُ الستين . . ولكن ، لا رأيَ لمن لا يُطاع » . . ! ! !

كانت هذه الكلمات للإمام ، يُدَوِّي في سمع « الحسن » صَداها . . كما كانت تُلِحّ عليه في وضع نهاية للصراع الذي حاول أَبوه أَن يتحاماه دون جدوَى .

ولكن ذلك لا يعني بحال . أنه آثر السلام وهو في « مركز ضعف » . . لا ، بل آثره وهو في « مركز قوة » مَكِين .

يقول « الحسَن البصري » رضي الله عنه :

« استقبل والله الحسنُ بن علي معاويةَ بكتائب أَمثال الجبال . فقال عمرو بن العاص لمعاوية : إني لأَرى كتائب ، لا تولِّي حتى تقتلَ أَقرانها ، فقال معاوية : إذا قَتَل هؤُلاءِ أُولئك ، فمَنْ لي بأُمور الناس » .

ورغم ما كان بأَهل الكوفة من تفسُّح وتردُّد ؛ فقد كان تحت تصرف « الحسَن » حين آثر السلام أَربعون أَلف مقاتل ، يُشكِّلون جبهة واحدة ، قوية وصامدة . . تحت إمرة رجل من أَعظم رجال الإسلام وقُوّاده – ذلكم هو : « قيس بن سعد بن عبادة » . .

ولقد كانوا مصممين على مواصلة الحرب ضد معاوية

تصميمًا حمل بعضهم على مُجابهة « الحسن » حين رأوه يعتزم الصلح وإقرار السلام مجابهة قاسية وعنيفة رغم حبهم له وتوقيرهم إياه .

* * *

هو إذن لم يُؤْثِر السلام عن ضعف ولا عن عَجْز.

ولم تكن الظروف العسيرة التي تسلم الخلافة فيها لِتُجاوز قَدْرها في كونها مجرد « موضوع » لتفكيره في السلام . .

أما « مصدر » تفكيره في السلام فكان طبيعته وخِصاله .

وهكذا قرر أن يَعرِض ، بل أن يَفْرِض السلام على معاوية . .

وقولنا « يفرض » السلام ، تعبير لا مُبالغةَ فيه ؛ فقد تغلّب على ظروف كثيرة لكي يجعل السلام حقيقة ناجزة .

وحسبنا أَن نعلم أَنَّ أَخاه « الحسين » مضى شوطا بعيدا في معارضته حتى قال له « الحسن » :

« لقد هممتُ أَن أَحتجزك في دار موصَدةِ الأَبواب ،
ثم لا أَدعُك تخرج منها حتى أَنتهي مما أُريد » . . ! !

* * *

كان « معاوية » قد تحرك بجيشه من الشام قاصدا الكوفة .

عندما علم باستشهاد الإمام واستخلاف الحسَن . .

وكان الحسن . قد خرج على رأس جيشه للقائه .

وإذْ هُم في طريقهم إلى المدائن ، نهض بين صفوف جيشه وقال :

« إني قد أصبحتُ ، لا أحمل لمسلم ضغينة :
وإني ناظر إليكم ، نَظرِي إلى نفسي . :
وقد رأيت رأيا ؛ فلا تردُّوا عليَّ رأيي ،
إن الذي تكرهون من الجماعة ، أفضل مما تحبون من الفُرقة » . . ! ! !

وثار الجيش - كما ذكرنا من قبل - لكنه كان قد وطّد عزمه على حَقن الدماءِ .

وكان معاوية من جانبه يتوق للسلام تَوْق الغريق إلى زورق النجاة . .

فأرسل مَبعوثَيْن إلى المدائن ، للتفاوض مع « الحسن » وكانا : عبد الرحمن بن سَمُرة . . وعبدالله بن عامر . . أبلغهما « الحسن » شروطه التي لم يكد معاوية يسمع بها فيما بعد ، حتى تقبلها في غير تردُّد أو تساؤل .

وتركزت شروط « الحسن » للصلح في هذه البنود الأربعة :

أولا : أن ترجع الخلافة بعد معاوية إلى المسلمين حيث يختارون بمشيئتهم الحرة ، من يرونه أصلح لقيادتهم وأجدر

ثانيا : ألاَّ يُؤخذ الذين ناصروه وناصروا أباه الإمام من قبل بما صنعوا ضد معاوية ، وألا يُحرَم أحد منهم حقه وعطاءَه . .

ثالثا : أن يَكُفَّ الأُمويون عن حملة السّباب واللعن التي يقترفونها ضد الإمام . ويشجعون عليها . .

رابعا : أن يكون عطاؤه وعطاء أخيه « الحسين » وافرًا وجزيلا . ولقد حدد بنفسه مقدار هذا العطاء . .

وإذا كان هناك من بين هذه الشروط ما قد يلتبس علينا أمره ، ويحتاج إلى مناقشة وتفسير ، فذلكم هو الشرط الرابع والأخير .

فلقد يبدو غريبا أن يُفرِط رجل مثل « الحسن » ابن علي ، وحفيد الرسول في طلب عطاءٍ كثير له ولأخيه . .

ولكن ، كما يقال : إذا عُرِف السبب ، بَطل العجب . .

وحسبنا أَن نعرف فيم كان ينفق « الحسَنانِ » أموالهما لندرك على الفور الحكمة في هذا الاشتراط .

وقبل هذا ، علينا أَن نذكر أن ميزانية الدولة الإسلامية ، كانت أيامئذ قد بلغت مدًى هائلا من الكفاية والثراء .

وبدأ ذلك النمو المطرد منذ فتوح الإسلام في عهد « عمر » .

وفي عهد معاوية ، كانت أموال غزيرة تنفق وتُبعثرُ في سبيل دعم حكمه وتركيز الولاءِ له .

بينما كان « الإمام علي » وهو خليفة مسئول في العراق يعطي المسلمين حقوقهم من بيت المال بالسَّوية ، رافضا أي تمييز أو سرَف . . ! !

حتى لقد أغضب بعضَ أنصاره ، حين رفض أن يتألف الناس بالمال ، ويختص بعض القبائل بأكثر من حقها ، قائلا عبارته المأثورة :

« أتأمرونني أن أطلب النصر بالجْور » ؟ !

والآن ، بعد أن يتصالح الحسن ومعاوية ويصبح أمر الخلافة كله له ، فلن يكون هناك سوى بيت مال واحد هو هذا الذي يشرف عليه معاوية بحكم سلطته وسلطانه .

و « معاوية » يعطي الأموال وَفْق مقاييسه الخاصة . .

فماذا يكون الموقف إذا أخلَف صلحه أو بعض صُلْحِه غدا ، فكَفَّ العطاءَ أو بَخِل به عن بعض أولئك الذين كانوا من قبل يناصرون « الإمام » ويناصرون « الحسن » ؟ ؟

لا بد للحسن إذَن أن يتحوَّط لهذا الاحتمال . .

وهنا يُفضي بنا الحديث إلى حيث نعرف أين كان ينفق « الحسن والحسين » أموالهما . .

لقد كانا يَعُودانِ بالكثير منها على نفرٍ من الذين فَقدوا ثرواتهم في سبيل القضية التي ناصروا فيها الإمام .

وكانا يُغدِقان بِرَّهما ونَدَاهُما على أُولِي الأَرحام ، وعلى الفقراءِ والمساكين . .

ولقد انفرد « الحسن » بأنه الرجل الذي قاسَمَ الله مالَه ثلاث مرات . . وخرج عنه كله مرتين . . ! !

ورجل هذه شيمته ، لا يطلب المال ليُترف به ، إنما يطلبه ليؤدي به حقوقا كثيرة ، أَهونُها كفالة الأَرامل والأَيتام الذين استشهد أَزواجهم وآباؤهم وهم يقاتلون تحت راية الإمام . . ! !

فَمِن أَجل تلك الحقوق ، ومن أَجل شَغفِهِ بالخير والبر اشترط لنفسه ولأَخيه وَفْرة العطاءِ . .

وحسبنا في هذا المقام شهادة « معاوية » نفسه ، فذاتَ يوم أَعدَّ أَحمال الهدايا التي كان يرسلها بين الحين والحين لِصفوة الصحابة في مكة والمدينة .

وبينما القافلة تتهيأ للسفر ، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم : « إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهذه الهدايا » . .

ثم راح يُسمِّي بعض الأسماء ، ويسوق الحديث عنها ، حتى جاءَ ذكْر « الحسن والحسين » فقال :

« . . وأما الحسَن ، فلعلَّه يدَعُ لزوجاته بعض الطِّيب ، ثم يترك لمن حوله كل شيْ . . ! !

وأما « الحسين » فيبدأُ بأيتام الذين قُتِلوا مع أبيه في صِفِّين ، فإن بقي بعد ذلك شيْ نَحرَ به الجزر ، وسقَى به اللبَن) . . ! !

أجل . . هذه شهادة « معاوية » . . وفيها فَصْلُ الخطاب ! !

ومن فَصل الخطاب أيضا ، أن العطاءَ الجزيل الذي فُرِضَ لهما ، لم يكن يكفيهما ، مع أنهما لم يُعرف عنهما قط عيش المترفين ولا حياة المسرِفين . ! !

ولقد تَراكَم على « الحسين » دَين ثقيل ، وانتهزمعاوية الفرصة فعرض عليه قدرا كبيرا من المال يقضي به ديونه ، نظير بيعه عين ماءٍ كانت للإمام « علي » بالمدينة ، وكان الإمام قد أهداها فقراءَ المدينة وأهلها ، يرتوون منها بغير حساب . . ورفض « الحسين » هذا العرض . .

فَفِيم إذن كانت هذه الديون رغم وفرة العطاء لقومٍ لا يحيَوْن في ترَف ولا في سَرَف . . ؟ !

إنها كانت بسبب حقوق مذخورة ، وعطايا مبرورة تعوَّدها الكرام ، أبناءُ الكرام . . ! !

قبِل معاوية شروط الصلح من فوره ، وتنازل له الحسن عن الخلافة . . وسارع معاوية إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهل العراق .

وفي الجمع الحاشد من المسلمين ، دعا « الحسَنَ » لإلْقاء كلمة ، فوقف « الحسن » والأبصار شاخصة إليه ، والأنفاس مُعلَّقة بشفتيه اللتين لا يدري أحد عن أي نوع من القول ستنفرِجان . .

وجاءَت كلماته في تلك المناسبة على وِفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم . ! !

قال بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه :

(أيها الناس . .

إن الله هداكم بأوَّلنا . . وحقَنَ دماءكم باخرنا . . ألاَ إن أكْيَس الكَيْسِ التُّقى ، وإن أعجز العجز الفُجور . . وإن هذا الأمر الذي اختلفتُ فيه ومعاوية : إما أن يكون أحقّ به مني ، فقد تركتُه له . .

وإما أن أكون أحقَّ به منه ؛ فقد تركته لله عز وجل ، ولِخير أُمة محمد صلى الله عليه وسلم وحَقْنِ دمائها) . .

ثم الْتفتَ صَوْب معاوية وقال :

« وإنْ أَدْرِي لَعلَّه فتنة لكم ومَتاع إلى حِين) . . ! !

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصالتها في مثل هذه المواقف ، وبمثل هذه الكلمات . . حيث يلتقي الصدق ، والقوة ، والترفُّع ، والحكمة أَسعدَ لقاء . . ! !

* * *

ومَضَى كُلٌّ إلى سبيله . .

معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض . .و « الحسَن » إلى المدينة ، قريرَ العين بما حقَنَ من دماء ، عظيم الغُنْم بما بذل من فِداء . . مُرَدِّدًا كلماته المضيئة هذه :

(لقد كانت جَماجِمُ العرب بيدي في العراق ، تُسالم من سالَمْت . . وتحارب من حاربت . . ثم تركتُها ابتغاءَ وجه الله) . . ! !

ولقد وفىً بعهده مع معاوية . ووفىً بالعهد معه أخوه « الحسين » الذي كان قبل إبرام الصلح من أَشد مُعارضيه .

تُرى ، هل سَيَفي معاوية . ؟ أَم أَن إغراءَ السلطة المطلقة

سيجشّمه مشقّة الوفاء . . ؟ ؟

على أية حال ، فقد أدّى الحسن ما اعتقده واجبا ، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهلٌ له .

لقد ترك للآخرين دنياهم ، وعكَف هو على الطاعة ، والعبادة والخير . .

* عابدا : يحب الله ويخشاه ، ويخرج إلى الحج من المدينة إلى مكة أعوامًا كثيرة ماشيا على قدميه والنجائب تُقادُ بَيْنَ يديه ، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب :

(إني أستحي أن ألقى ربي ، ولم أمْشِ على قدَمَيَّ إلى بيته) . . ! !

* جوادًا : لم يكن يُبقي من ماله شيئا . . لا يعرف مكروبا إلا فرّج كُربته ، ولا غارمًا إلا قضى دينه . .

* سيِّدا : لا يعرف الدنِيَّة ولا يقبلها ، ولا يَعرف السوءُ طريقا إلى لسانه ومَقاله . .

يقول « محمد بن اسحاق » :

(ما رأيتُ أحدا كان إذا تحدث تمنَّيْتُ ألاّ يسكت ، مثل الحسن بن علي . . « وما سمعتُ منه كلمة سوء

قط . . وإن أشدَّ كلمة سمعتها منه ، هي تلك التي قالها حين وقعت خصومة بينه وبين عمرو بن عثمان ، فقال الحسن : ليس له عندنا إلا مارَغِم أنفه . . تلك أشدّ كلمة سمعته يقولها) . . ! !

ولقد تحدّث - رضي الله عنه - راسمًا للناس صورة المؤمن المثاليٍّ الرشيد ، فقال :

(إنه مَن تَصغُر الدنيا في عينه ويخرج على سلطان بطنه ، وفرجه ، وجهله . .

لا يَسخَط ولا يتبرّم . .

إذا جالس العلماءَ ، كان على أن يسمع أحرصَ منه على أن يتكلم . .

وإذا غُلب على الكلام ، لم يُغلَب على الصمت . .

لا يشارك في ادِّعاء . . ولا يدخل في مِراء . .

لا يَغفُل عن إخوانه ، ولا يختصّ نفسه بخير دونهم . .

وإذا تردّد بين أمرين ، لا يدري أيهما أقرب إلى الحق .

نظر إلى أيهما أقرب من هْواه ، فخالَفه واتَّقاه) . . ! !

• • •

هذه خُلاصة لدستور حياته ومنهاج نفسه ، أفلا يكون قرير

العين إذن بهذا السلام الذي سيوفر له فرصة العكوف على فضائله ومزاياه يُنمِّيها ويُزكِّيها . . ؟ ! بلى . . ولقد استقر وأخوه وآل بيتهما بمدينة رسول الله . .

ولم تكد تنزاح عن الناس في شتّىً الأقطار غمرات ما كانوا فيه من خلاف وصراع ، حتى راحت أرواحهم تهفو نحو المدينة ، وخواطرهم تُطوِّف من قريب وبعيد حول رَيْحَانَتَيْ رسول الله . .

ومع مرور الأيام، كان تَطلُّع المسلمين إلى المدينة بما فيها من هُدًى ونور ، يفوق تطلعهم إلى دمشق رغم ما فيها من دنيا وإغراء . . ! !

وراحت مجالسهم وندواتهم في كل بلد تردد ما نقله الثّقات من أصحاب الرسول عن حبه لابنيه « الحسن ، والحسين ».

كان الناس يسمعون ويتناقلون أنباءَ هذا الحب العظيم الذي أضفاه عليهما جدّهما النبي ، فتكاد أفئدتهم تطير شوقا إليهما . . حتى بعض أولئك الذين ناصبوهُما من قبلُ العداء .

وراح المسلمون يرددون تلك الأحاديث التي تصور قدرَهما ، والتي حباهُما الرسول بها كثيرا :

(الحسن ، والحسين سيدا شباب أهل الجنة . بعد عيسى ويَحْيَ) . .

(هذان ابناي . . وابنا ابنتي . . اللهم إني أُحِبهما فأَحِبَّهما ، وأَحِبَّ مَن يُحبهما) . .

(اللهم هؤُلاءِ أَهل بيتي فأَذهِب عنهم الرجس ، وطَهِّرهم تطهيرا) . .

(الحسن ، والحسين ريحانتايَ من الدنيا) .

(حُسَيْنٌ مِنِّي ، وأَنا مِن حُسَيْن ، أَحَبَّ الله من أَحَبَّ حُسَينا) . .

وهكذا استولى على الناس ولَعٌ نبيل ، بتتبع أَنباء حياتهما — مذ أَهَلاَّ على الحياة . . ! !

كيف اختار الرسول بنفسه اسميهما . . ؟ كيف كان يداعبهما . . ؟ كيف كان يحزنه أَن يسمع بكاءَهما . . ؟

وراحت الوفود من كل مصر تشدُّ رحالها إلى المدينة لتلقَى بها ابنَيْ رسول الله وأَحب الناس إليه ، ولِترتَشِفَ من حكمة « الحسين » الذي عكَف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول . .

وكانت حلقات درسه غاية في الجلال والمهابة . .

وصفها معاوية نفسه فقال :

(إذا دخلتَ مسجد رسول الله ، فرأَيت حَلْقه فيها قوم كأَنَّ على رءوسهم الطير ؛ فتلك حلقة أَبي عبدالله

الحسين) . . ! !

كذلك أخذ الشاكُون من ظلم وُلاة معاوية واستهتارهم ، يغذّون السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى « الحسن والحسين » فيدعُوان الناس للصبر ، ويرسلان لمعاوية بالنُّصح . .

تُرى ، هل سيصبِربيت أبي سفيان على هذه المكانة المتصاعدة دوما في قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته . . ؟ ؟

كلا . .

وذات يوم ، دُسَّ للإمام الحسَن السُّمُّ في الطعام . . ! ! !

* * *

ويُمسك التاريخ في هذه الجريمة الدنيئة ، بإحدى زوجاته وهي - جعدة بنت الأشعث بن قيس - كما يمسك بأصابع الغدر الأموي . . . .

ومِن عجب أن الأشعث بن قيس ، والد - جَعْدة - ، كان من أبرز أنصار الإمام علي . . ثم كانت له أثناءَ خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة ، ومحاولات مُريبة .·. كانت سببا في أكثر ما نَزل بالإمام يومها من آلام وأخطار . . ! !

* * *

ومرض « الحسن » عليه السلام مرض الموت .

وبقيت أصالة فطرته وإيمانه متألِّقة ، حتى تحت وطأة هذا الاغتيال الخفيِّ ، والسُّقم الفاجع الأليم ! !

في عِلَّته هذه ، أخذ أخوه « الحسين » يُلحّ عليه كي يبوح له بمن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء .

لكن حفيد الرسول العظيم ، لا ينسى مبادئه تحت سَحْق آلامه ، فيسأل أخاه :

(وفيمَ سُؤَالُك عمَّن سقاني السّم . . ؟
« أتريد أن تُقاتلهم . . ؟
« لا . . إني أَكِلُ أَمرهم إلى الله) . . ! !

انظروا . .

إنه حتى في غمرة الموت لا تتخلف إرادته عن مبادئه ، ويبقى رجلَ الأناة والسلام فيه ، متفوقًا على الألم . وعلى الكراهية بل وعلى حقه العادل في القصاص المشروع . . ! !

وراح يملأُ أيامه الباقيات بالصلاة والدعاءِ . مُردِّدا منها ذلك الدعاءَ الذي كان جَدُّه الرسول قد علَّمه له منذ شبابه .

(اللهم اهْدِني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافَيْت ، وتولَّني فيمن تولَّيْت . وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شرَّ ما قضيت . فإنك تَقضي . ولا يُقْضى عليك ،

وإنه لا يَذِلُّ من واليت ولا يَعزُّ مَن عاديت تباركت
ربَّنا ، وتعاليت) . .

لقد هداك الله - أبا محمد - وعافاك ، وتولاَّك ، وبارك لك فيما أعطاك . .

وما تركَتْ مقاديرك العظيمة جُرعة السّم تأْخذ طريقها إليك ، لتستكمل بالشهادة والفداء ، شرَف الانتماء إلى بيت القرابين والشهداء . . ! ! !

* * *

وبعد . . فقد آن لبطل السلام أَن تُزفَّ إلى الجنة روحه .

ولكن لا تزال أَمامه وصيةٌ يريد أَن يُوصي بها ، فقد كان شوقه عظيما لأَن يُدفن مع جده الرسول . .

وكان قد استأْذن « السيدة عائشة » في ذلك ، فأَذِنَت له . .

والآن ، وشمس حياته تميل للغروب ، لأَخيه الحسين :

(إذا متّ فادفني مع النبي ، فإني كنت قد طلبت ذلك
من عائشة وأَجابتني . . وإذا عارضَك بنو أُمية ، فلا
تُراجِعهم ، وادفني في البقيع) . . ! !

ومِن أَسف أَن الذي توقعه قد حدث . . فرفض مروان

ابن الحكم أَمير المدينة من قِبَل معاوية أَن تُحقَّق رغبة الشهيد المسَجَّى . . وأَنزَل إلى الشارع حرسه المُسلَّح في خِسَّة ودناءَة ، تليقان بمروان ، وبمن على شاكلة مروان . . ! !

ورأَى « الحسين » رضى الله عنه ذلك ، فانتضَى سلاحه ، وصمم على إنقاذ وصية أَخيه . .

لكنّ نفرًا من الصحابة الأَجِلاّء ذكروه بالفقرة الأَخيرة من الوصية وحمَلوه عليها :

(. . فإن منعوك ، فلا تُراجعهم ، وادفنيٍّ في البقيع) . .

* * *

وشَرُفَ ثَرى البقيع بهذا الضيف المجيد . .

وآبَتْ إلى وطنها الحق في جنات الخلد ، رُوح السّيد . . ورُوح الشهيد ! ! . . .



الفصل الرابع

العَاصِفةُ تَزْأر !!

خَلص المُلْك لمعاوية على النحو الذي أَراد . . وبتنازل « الحسَن » له عن الخلافة سكنت كل الرياح التي كان يخاف هُبُوبها على عرْشه وحكمه . . فراح يُصرِّف شئون امبراطورية من أَقوى امبراطوريات عصره كما يهوى وكما يشاء . وراح يستخدم مزاياه الشخصية وكفايته ، كما يستخدم كفاية الذين حوله أَبرع استخدام .

راح يوجه كل المزايا وكل الكفايات نحو غاية واحدة هي دَعْم سلطانه .

فحلمه ، ودهاؤُه ، وصبره ، وعطاؤُه . . كل ذلك يَسعُ الناس ماتركوه وسلطانه . ؛ فإِذا هدّد هذا السلطان شيءٌ ، فالحلم والدهاء ، والصبر ، والعطاءِ . . أَسلحة تنزل إِلى المعركة لتدفع عن السلطان مخاوفة . . فإِذا عجزت ؛ فالسيف والقتل بغير إِبطاء ! !

وإِن له في ذلك عبارة مأْثورة :

(إِني لا أَحول بين الناس وبين أَلسنتهم ، مالم يَحُولوا

بيننا وبين سلطاننا) . . !

ولطالما يحدثنا التاريخ عن قوم كانوا يَجْبَهونَهُ بقوارص الكلم في وجهه وأمام الناس ، فلا يزيد على أن يضحك . . ثم يضحك . . ثم يُجزل لهم العطاء ! !

ولقد كتب يومًا لزياد ، واليه على الكوفة والبصرة يقول له :

(إنه لا ينبغي أن نَسُوسَ الناس بسياسة واحدة ، فيكون مقَامُنا مقام رجل واحد . .
« ولكن تكون أنت للشِّدَّة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا) . . ! !

ولو أن معاوية – غفر الله له – كان أكثر اهتمامًا بسلطان الإسلام منه بسلطان بني أُمَيَّة ، لَوفَّر على الإسلام وعلى المسلمين كثيرًا من المخاطر والمهالك التي أفضى إليها حرصُه على ذلك السلطان . .

لقد جشَّمه ذلك الحرص من الشَّطط ما كان يعود عليه نفسه بالغُرم الأكيد .

وإنا لنذكُر – مثلا – تشجيعه النزعة القبلية بإيثاره في العطاءِ وفي المكانة بعض القبائل على بعضها الآخر ، فهو يُغدق على « اليمانيَّة » ويميزهم في العطاء . ويجعل لهم كيانًا عسكريًا

قائمًا بذاته . . ثم لا يلبث أمرهم أن يعلو ويتفاقم ، حتى راحوا يمنُّون عليه بما هو فيه من سلطان ، ويقولون : لولا نحن ما كان معاوية . . فيضطرب الأمر في يده ويُعالج الموقف بخطأ جديد حين يتجه إلى قبائل « القَيْسِيَّة » فيُغدق عليهم الأموال والامتيازات . . ثم لا يُجْدِيه ذلك شيئًا ، فيُرهق نفسه في التوفيق بين القوتين الكبيرتين من جديد . .

كذلك نرى أن الحلْم الذي لم يُعرَف في التاريخ بمثل ما عُرف به . . . نرى هذا الحلْم وهو أبرز خلائقه ومميزاته لا يغني عنه شيئًا في دَرْءِ صفة القسوة والقتل عن عصره وحُكمه . . فمصرَع « حُجر بن عديٍّ » وأصحابه بأمر معاوية وعلى مقربة من قصره بالشام بغير جريرة ولا ذنب ، حدَثٌ يُحلِّل سلطان معاوية بالسُّوء . .

لقد كان حادثًا بَشعًا ، حتى لقد ندم هو نفسه على اقترافه ، وبقي إلى آخر عمره غُصَّةً تُفزعه وتُضْنيه . .

ثم وصيته إلى ولده يزيد أن « إذا خرج عليك عبد الله بن الزبير فظفِرتَ به فقطعه إرْبا . . إرْبا » ! ! . .

ثم قسوة وُلاته ، واستعلاؤهم على المسلمين بصورة تُشير غيظ الحليم . ! !

وإنّا هنا – في مصر – مثلاً – لنحفظ ونذكر خطبة أخيه عتبة ابن أَبي سفيان الذي ولاَّه أمرها بعد موت « عمرو بن العاص » إذ استهلَّ حكمه وولايته بأن جمع أهل مصر الطيبين الوُدَعاء، وقام فيهم خطيبًا بهذه القوارع :

(يا حامِلي أَلأَم أَنفٍ رُكِّب بين أَعْين . . ! !

« إني إنما قلَّمتُ أَظفاري عنكم ؛ لِيَلين مُخشِنًا لكم

« فأَماَ إذْ أَبيتم إلا الطعن على السلطان ، فوالله لأُقَطِّعَن بطون السياط على ظهوركم . . فإن حَسَمتْ أَدوَاءَكم ، وإلا فالسيف من ورائكم . .

يا أَهل مصر . . قد كنتم تُعذَرون ببعض المنع منكم لبعض الجوْر عليكم . . وقد وَلِيكم من إذا قال فعل . .

فإن أَبيتم درَأَكُم بيده ،

فإن أَبيتم درأَكُم بسيفه . .

« إن البيعة شائعة . .

« لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل) . ! !

* * *

إن للسلطة ضراوةً لا تُقَاوَم ، إذا هي بسطت إغراءَها

ونفوذَها على حاكم يرى فيها غُنْمًا لا تضحية . . . وزَهْوًا ، لا واجبا . .

ونحن لا نريد الطعن في معاوية ؛ فإن منهجنا أن نحترم كل الاحترام ، مَن صَحِبَ رسول الله وصلىً وراءَه . وجلس بين يديه . . وقاتل تحت لوائه . . مُفَوِّضين أمره فيما يكون له من خطأ إلى الله . .

بيد أننا خلال قيامنا بواجبنا في تَحرِّي الحقيقة في هذه القضية التي ندرسها ، لا نملك إلا إبداءَ الأسف الشديد ، والجزَع الأشد لهذا النهج الذي سار عليه مؤسس دولة الأمويين . لاسيما حين اتخذ أفدْح قراراته ، وأكثرها ضراوة وبؤسا . . ذلكم هو أخذ البيعة لولده – يزيد – وفَرضُه على الدولة المسلمة وعلى الأُمة المسلمة ؛ الأمر الذي يعنينا الآن بحثه ، والذي كان السبب المباشر والأَوحد في مَأساة « كرْبَلاء » . . وفيما تلا « كرْبَلاء » من أهوال شهدتها مكة وشهدتها المدينة على نحوٍ أَليم ووَبيل . . هذه الأَحداث التي كانت هي الأُخرى سببًا مباشرًا في ضياع المُلك من بيت معاوية وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته ، ثم انتقال هذا المُلك إلى بَطْن آخر من بُطون بني أُمية ، أُولئك هم بنو مروان . .

لقد اهتزت أعطاف « معاوية » بالإمارة والمُلك ، أربعين عامًا كاملة . . عشرين عامًا ، أميرًا . . وعشرين عامًا . مَلِكا . .

أفما كان يكفيه ذلك . ثم يَترك الأَمر من بعده لاختيار المسلمين ، ليكون في ذلك على الأَقل وَفاء بالعهد الذي أَبرمه مع « الحسن » والذي كان أَهم شروطه للتنازل له عن الخلافة . . ؟ ؟

إِن ذلك لم يَحدث . . ولقد قرَّر معاوية . . بتدبيرٍ مِنه ، أَو بإِيحاءٍ مِن بعض مُشيريه ، أَو بهما معًا ، أَن يستبقى السلطان في بيته وأُسرته ، واختار لذلك أَبعد الناس عن الصلاحية للأَمر ولده « يزيد » . .

فحين أَحسَّ خُمود صحته ، ودُنُوَّ نهايته . شرَع على عجل يفرض – يزيد – على الناس ويهيئ له مكانه . .

وبدأَ بالمدينة حيث كان بها نَفرٌ جليل من بقية الصحابة . .

ولم يكد واليه عليها وقريبه في نفس الوقت – مروان بن الحكم – يعرض الأَمر على المسلمين الذين احتشدوا في المسجد الكبير ، حتى جابَهَتْه مُعارضة رهيبة . لقد وقف « عبد الرحمن بن أَبي بكر » يقول لمروان :

« والله ،ما الخيارَ أَردْتم لأُمة محمد . .

« ولكنكم تريدون أَن تجعلوها هِرَقْلِيَّة ، كلما مات

هِرَقْلٌ ، قام هِرَقْل . . . ، . . ! !

وتلاه « الحسين » فرفض في كلماتٍ قَواطِعَ هذا العبث بمصاير الإسلام والمسلمين . .

وتلاه « عبدالله بن الزبير » فدَمْدَمَ على مروان وعلى معاوية بكلماتٍ كألْسِنةِ اللَّهب . . ! !

وأُبلغ أَمر المعارضة إلى معاوية ، فلم يحمله ذلك على إعادة النظر في قراره . بل دفعه إلى الإيغال في سرعة إنجازه .

فأَرسل إلى ولاته الآخرين على بقية الأَمصار ، آمرًا إياهم أَن يَسُوقوا الوفود إلى الشام كي تبايع ليزيد . .

وشهدت الشام مهزلة البيعة ومأَساتها على نطاق واسع ، بعد أَن أَدَّى الذهب والسيف دورهما في حمل الناس على المبايعة .

ولكن موقف « المدينة » ظلَّ يُؤَرِّقه ، فقرر السفر بشخصه إليها.

وهناك حاول إقناع زعماءِ المعارضة – عبدالله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبدالله بن عمر . فلما أَعْيَتْه الحيلة لجأَ إلى القوة في مظاهرة مُسَلَّحة عجيبة . . ! !

لكن الزعماء الثلاثة صمدوا ، ولم يتحرك منهم لسان ببيعة . . وأَمام مُنَاوَرة الموت التي فاجأَهم بها معاوية ، لاذُوا بالصَّمْت ،

فاستغلَّ هو صمتَهم وأذاع في الناس أنهم مُبايعون . . ! !

لقد برَّر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نُشوب الخلاف والصراع من جديد بين المسلمين . .

وإنه لَتبرير يُدِينُه أكثر مما يَشفعُ له . . ! !

فلماذا خشي الصراع والفتنة إذا هو لم ينقل الملك إلى يزيد . . ولم يَخْشَهُما إذا هو وَسَّد الأمر لغير أهله وسلَّم قيادة الدولة المسلمة إلى أكثر العالمين بُعدًا عن الصلاحية لها ، وهو يزيد . . ؟؟ ! !

إن هذه النظرة تكشف بوضوح عن أن معاوية كان ينظر إلى الأمر على أنه – كما قلنا من قبل – سلطان بني أُميَّة ، أكثر مما هو سلطان الإسلام وسلطان المسلمين . . ! !

ووضْع المسألة على هذا النحو – وهو وضع صحيح – يجعل المقاومة أمرًا محتومًا وقدَرًا مقدورًا . .

ولقد بدأت المقاومة بامتناع « الحسين ، وابن الزبير ، وابن عمر ، وابن أبي بكر » بالمدينة عن البيعة . .

وبدأت بالتذمُّر الكالح الذي ملأ صفوف الجماهير في كل مكان . . والذي ارتفع به الصوت داخل الأمويين أنفسهم الذين كانوا يشمئزون من يزيد ، ويرون بين رجالهم من هو أحق

وأجدر . . كذلك شاع حتى على ألسنة الذين بايعوا من عامَّة الناس مُكرَهين . .

ذلك أن « يزيد » كان شابًا عابثًا لاهيا . . والتاريخ يصوره دائمًا بين بطانته ، وهي بطانة سوءٍ ، يلهون ، ويشربون ، ويعربدون . .

وحتى حين أراد أبوه أن يُضفِيَ على سيرته بعض التَصوُّن والوقار ، فأرسله إلى مكة حاجًّا ، لم يُغنه ذلك شيئًا ، فقد اصطحب يزيد معه لهوه وعبثه وبطانته . . ! !

ويزيد ، قبل هذا ، وبعد هذا ، تنقصه كل مقومات الرجل المناسب للمكان المناسب . . فهو مُفلس إفلاسًا تامًا من كل ما كان لأبيه من دَهاءٍ ، وشخصية ، وذكاءٍ ، ومَقدِرَة . . !

ففيم استَخلافُه . . ؟ وبأي رُشْد وأي ضمير ، يُفرضَ واحدٌ هذا شأنه على الإسلام وعلى المسلمين . ؟ ؟ !

ثم أين عهده مع « الحسن » على أن يترك الأمر بعده شُورَى ، حيث يختار الناس مَن يرتَضون . . ؟ !

لكنَّ معاوية فعلَها – غفر الله لمعاوية . .

وفي العام السِّتين للهجرة مات ، لينتقل الأمر من بعده إلى يزيد . . . .

وبدأ – يزيد – عهده بإنفاذ الوصية التي تركها له أبوه قُبيل وفاته :

« إني لا أخاف عليك سوى أربعة رجال :

الحسين بن علي . . وعبدالله بن عمر . . وعبد الرحمن بن أبي بكر . . وعبدالله بن الزبير . .

• « فأما الحسين بن علي ؛ فإن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه إليهم ؛ فإن فعل فظفرتَ به فاصفح عنه . .

• « وأما عبدالله بن عمر ، فرجُلٌ قد وَقَذَتْهُ العبادة ، ولا يريد الخلافة إلاَّ أن تأتيه عَفْوا . .

• « وأما عبد الرحمن بن أبي بكر ، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح إلى طلَبها ، أو يُحاول الْتماسها إلا أن تأتيه عفوا . .

• « وأما الذي سَيَجْثُمُ لك جُثُومَ الأسد ، ويُراوِغُكَ رَوَغان الثعلب ، حتى إذا أمْكنَتْه فُرصة وثَبَ عليك ؛ فذلك هوعبدالله بن الزبير . .

فإن فعل وظفِرْتَ به فقطعه إرْبا إرْبا ، إلا أن يلتمس منك صلحًا . . فإن فعل فاقبل منه ، واحْقِن دماءَ

قومك بجهدك . . وكُفَّ عاديتهم بنوالك . . وتغمَّدهم بحلمك . .)

تُرى ، هل كان معاوية يعرف لابنه هذا جُهدًا ، أو نوالاً ، أوحلمًا يُعالج به الأُمور . . ؟ ؟

على أية حال ، فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل ، وسِيقَ الناس إليه يبايعونه مَلِكًا ، بعد أن بايعوه من قبلُ أميرا . .

واهتزَّ كيانُه فزعًا ، تحت ضغط مشاعره الوَجِلَة لوجود الحسين وابن الزبير وابن أبي بكر وابن عمر بالمدينة ، فكتب على الفور إلى عامله هناك – الوليد بن عُتْبة بن أبي سفيان – بهذا الأَمر الحاسم : –

(. . أما بعد ، فَخُذْ حُسَيْنا ، وعبدالله ابن عمر ، وعبدالله بن الزبير ، وعبد الرحمن ابن أبي بكر بالبيعة أخذًا شديدا ، ليس فيه رخصة حتى يُبايِعوا ، والسلام) . .

واستنجد الوليد بمشورة قريبه مَروان . وكان مروان واليا على المدينة من قبل ، ثم سَخِط قرارَ معاوية أخذه البيعة ليزيد ، إذ كان يرى نفسه بحكم سنه ومَشْيَخَته في بني أُمية أَحق بها

وأولى . .

ولَخَّص مروان مشورته للوليد في هذه الكلمات السُّود :
« . . أما ابن عمر ، وابن أبي بكر ، فلا أراهما يريان القتال . .
ولكن عليك بالحسين وعبدالله بن الزبير ؛ فابعث إليهما فإن
بايعا ، وإلا فاضْرب أعناقهما قبل أن يَذيع في الناس نبأُ موت
مُعاوية ؛ فَيثِب كل واحد منهما في ناحية » . . ! !

هكذا ، وبكل يُسْر واستهتار يُطوِّح مروان بالرقاب ! !

اضرب أعناقهما . . ! !

هذا هو نهج الذين اغتصبوا حق المسلمين في خلافتهم ،
وأرادوا أن يجعلوه وقْفًا على أنفسهم وعلى ذَرَارِيهم حتى آخر طفل
فيهم وآخر رضيع . . ! !

ومروان - هذا - الذي يُشير بقطع الرقاب ، هو الذي
سينتقل إليه الملك بعد أربعة أعوام من مُلك يزيد . . وهو الذي
سيظل الملك في عَقِبة حتى يجيءَ العباسيون بعد عشراتٍ من السنين ،
لا نرى فيها وفي كل أولئك الحاكمين من هو للقَداسَةِ أهل
سوى « عمر بن عبد العزيز » رضي الله عنه وأرضاه . . هذا الخليفة
العادل الذي سيَضِجُ من مظالم قومه وعائلته ، ويبرأُ إلى الله
منها . . ! !

ونعود إلى – الوليد بن عتبة – وَالي المدينة ، فنراهُ يرسل في طلب « الحسين ، وابن الزُّبَيْر » . .

وفي طريقهما إليه يسأَل ابنُ الزبيرِ الحسينَ :

= تُرى في أيٍّ أَمر بعث إلينا هذه الساعة . . ؟

ويجيبه الحسين :

= احسب أَن معاوية قد مات . . وقد بَعث إلينا للبيعة . . !

ويعودان أَدراجهما دون أَن يُواصِلا السير إلى الوليد .

فأَمَّا « عبدالله بن الزبير » فقد انتظر مجيءَ الليل ، ثم حمل متاعَه ، وركب راحلته ، وسافر إلى مكة . .

وأَما الحسين ، فيأخذ نفَرًا من أَتباعه ، ويسير بهم إلى الوليد في دار الإمارة ، ويأَمرهم أَن ينتظروه خارج الدار ، فإن سمعوا حوارا غاضبًا بينه وبن الأَمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الحسين إذا أُريد به السُّوءَ .

بَيْدَ أَنَّ الوليد في هذا الموقف كان خيرًا من أَلْفٍ من طراز مروان . .

ذلك أنه لم يكد يُنهي إلى « الحسين » نبأَ وفاة معاوية ، داعيًا إياه إلى بيعة يزيد ، حتى قال له « الحسين رضي الله عنه :

(إن مثلي لا يعطي بيعته سرّاً ، فاجمع الناس ليبايعوا ، وأبايع على مَلأْ) . .

ولا نستبعد أن يكون الوليد ، قد أدرك ما في كلمات الحسين مـن مُناوَرَة شريفة ، آثر أن يتغافَل عنها ، حتى لا يُلَوِّثَ يديه بجريمة العدوان الذي أشار به مروان .

لذلك نراه ، حين أصبح الصباح في اليوم التالي ، وجاءَه الخبر بأن الحسين رَحلَ إلى مكة . ولامَه مروان على نبذ مشورته . . نراه يقول يومَها لمروان :

(أتُشير عليَّ بقتل الحسين بن فاطمة ، بنت رسول رسول الله . . ؟ ؟

« والله ، إن الذي يُحاسَب بدم الحسين يوم القيامة لَخفيفُ الميزان عند الله) . . . ! !

* * *

رحل الحسين إلى مكة . . ذلك البلد الحرام الذي يلتمس الناس فيه الأَمْن والملاذ .

واصطحب معه أُختاه « السيدة زينب ، والسيدة أم كلثوم » وإخوته « أبو بكر ، والعباس ، وجعفر » وأولاد أخيه « الحسن » وجميع من كان بالمدينة من أهل بيته ، عدا أخاه

« محمد بن الحنفية » الذي آثر البقاء بالمدينة .

وكان قد سبقه إلى مكة كما ذكرنا ، عبدالله بن الزبير .

كذلك كان قد سبَق إليها حَبْرُ الأُمَّة « عبدالله بن عباس »

وفي مكة ، استقر الحسين وآله . . وأقبل أهلها بل وأقبلت الوفود من خارجها على ابن بنت رسول الله تلتمس منه الحكمة والهدى والنور .

ولقد كانت مكة آنئذ أَنْسَب مكان يُدبر فيه « الحسين » خواطره وتفكيره حول القضية الجليلة التي تشغله ، والوضع الخطير الذي حاق بالمسلمين . .

• فهنا . . وفي قديم الزمان ، كان هاشم ، وعبد شمس ، أخَوان وُلدا لعبد مَناف . . ومِن هاشم ، جاءَ النبي ، وعَليّ ، وبنو هاشم أجمعون . .

ومِن عبد شمس ، جاءَ أُميَّة ، وأبو سفيان ، ومعاوية ، ويزيد ، وبنو أُميَّة كافّة . .

• وهُنا . . كان هاشم يملأُ مكة والجزيرة بِرًّا ومجدا وكرما ، فهو الذي يطعم الحجيج ، ويَحمي الذِّمار ، ويرسل قوافله إلى الشام وإلى اليمن لتعود مُوقَرَةً بالخير والرزق للناس ، حتى قال فيه شعراء قريش يومئذ .

عَمْرُو الذي هَشَم الثَّرِيد لقومه

قـــومٍ بمكةَ مُسْنِتِين عِجافِ

سُنَّتْ إليه الرحلتان كلاهمــــا

سَفَرُ الشِّتَاءِ ورِحلةُ الأَصيـــافِ

بينما عبد شمس مُزْمِعُ أَسفارٍ دائمًا لا يحمِل تِجاه قومه ما يجب من تَبعات . .

* وهنا . . شهدت مكة ذات يوم أَروعَ مُنجزاتها الأَخلاقية والسياسية يوم أَقرَّت كل قبائلها « حِلْفَ الفُضول » . . ذلك الحِلف الذي كان مضمونه وفَحواه أَن تُردَّ الحقوق إلى أَهلها ، وأَلاَّ ينتصر ظالم على مظلوم ، وأَن يُضحِّي المشتركون فيه بحياتهم إذا تعرضت العدالة لخطر . . ! ! !

ومِن عجب أَن كل قبائل قريش وبُطونَها ، اشتركت يومئذ في هذا الحلف ما عدا بنو عبد نوفل . . وبنو عبد شمس آباء الأَمويين . . ! !

* وهنا يستطيع « الحسين » أَن يمدّ بصره فيرى الدار التي عاش فيها وبزَغ منها جَدّه العظيم « محمد رسول الله » هاتفًا بكلمة الله ، حاملاً مِعْولَه الرشيد في وجه وثنيَّة الحجَر . . ووثنية البشَر . . ! ! !

ويستطيع أَن يَمُدَّ بصره ؛ فيرى « زمزم » التي حفرها جده « المطَّلب » امتثالاً لرؤْيا صادقة ، والتي كانت لقريش حياة ورِيًّا ، وصارت للمسلمين تُراثًا ومَنْسَكا . .

ويستطيع أَن يمد بصره فيرَى الدُّور التي خرج منها مَهديُّون أَبرار ، آمنوا بالرسول وآزروه في دعونه ووحدته ، وفي مقدمتها دار أَبي بكر . . ثم يرى الدُّورَ التي خرج منها أُولئك الذين سَخِروا من دعوته ، واضطهدوا أَهله وصحبه ، وفي مقدمتها دار أَبي سفيان . . ! !

* وهنا . . يستطيع أَن يرى ويسمع الأَصداء الصادقة الباهرة لصوت جده «أَبي طالب » وهو يقول للرسول :

« يا ابن أَخي ، ادْعُ أَلى سبيل ربك ما شئت ، فوالله لا أُسْلِمُك إِليهم أَبدا . . »

ثم يقف إلى جواره كالطَّوْد مُضحِّيًا براحته ، وأَمْنه ، ومكانته بين قومه . .

كما يسمع الأَصداءَ الصادقة الباهرة لصوت جدَّته « خديجة » وهي تقول للرسول :

(والله ، لا يُخْزيكَ الله أَبدا) . .

ثم تنهض إلى جواره في وجه قريش واضعةً كل ثروتها

وجاهها في خدمة الدين الحق الجديد . .

* وهنا . . يسمع الحسين بكل سمعه وقلبه كلمات جده الرسول الكريم التي تركها للتاريخ الإنساني بأسره قدوة ونبراساً وهُدَى

(. .والله ، لو وَضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ، ما تركتُه حتى يقضيه الله ، أو أهلك دونه) . . ! !

أَجَل . . هنا سيسمع الحسين صَداها . . ويتراءَى له المشهد ، فيُفَجِّر في نفسه بَأسَها ، ونضالها ، وتُقاها . . ! !

ولسوف يَسأَل نفسه : ما هذا الأمر الذي رفضَ جدُّه النبي أَن يتخلَّى عنه ولو أُوتِيَ مُلْكَ الشمس والقمر وما بينهما . . ؟ ؟

ويجيبه قلبه : إنه كلمة الله ودينه .

ويعود يسأَل نفسه : وأَين دين الله اليوم ، ومَن الذي يحمل لواءَه . . ؟ ؟

ويجيبه الواقع : إن دين الله اليوم في مِحنة ، إنه يتحوَّل إلى ملك عَضوض . . وإن الذي يحمل لواءَه اليوم طاغية عربيد اسمه ، يزيد . . ! !

يعود يسأل نفسه : وما المصير . . ؟ ؟

ويُجيبه وَعْيُه ورُشده : المصير عودة الجاهلية وسيادة الوثنية ، ودُنُوّ ساعة هذه الأُمة حيث يرجع كل ما بَنَتْ وشادَت تُرابًا في تُراب . . ! !

أَلم يقل جدّك الرسول عليه السلام :

« إِذا وُسِّد الأَمر لغير أَهله ، فانتظر الساعة »

فها هو ذا قد وُسِّد لغير أَهله . . بل لِشرِّ أَهله ! ! . .

ويعود سائلا نفسه : وما واجبي الآن ؟ . .

ويجيبه ضميره : المقاوَمة ، الآن ، وأَبدًا . . حتى يفوز الحق ، أَو تَهلِكَ دُونه ، . . ! !

* * *

على هذا النحو ، لا بد أَن يكون « الحسين » قد أَدار خواطره وتفكيره . .

وفي رأْينا أَن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة في وعيه ووُجدانه ، وكانت وليدة إِدراكه السديد لحق الدين عليه واستعداده للتضحية في سبيله .

وليست نتيجةً لموقف أَهل الكوفة الذين أَرسلوا إِليه كُتبهم

ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه ، وليسيروا تحت لوائه إلى مقاومة يزيد .

أَجل . . ما كان « الحسين » لِيدَعَ دين الله ودنيا الناس أُلعوبة في يد يزيد . .

بل كان سيبشر بالمقاومة ، ويخلُق ظروفها المواتية ، ثم يضرب ضربته العادلة .

وسواء دعاه أَهل الكوفة أَم لم يدعوه ؛ فلقد كان يهتدي إلى مسئولياته بنور إيمانه وبصوت ضميره . . وليس بتحريض قوة خارجية .

ولقد عرفنا رأْيه القديم في صلح أَخيه مع معاوية . . إذ كان يعارض هذا الصلح ، معلنًا أَن آل أَبي سفيان لا عهد لهم ولا أَمان .

فإذا كان هذا رأْيه والخليفة بالأَمس معاوية ، فكيف يكون إذن ،والمستَخْلَفُ اليوم يزيد . . ؟ !

ثم إن خروجه من المدينة إلى مكة ، ورفْضَه البيعة ليزيد يُشكلان إعلانًا لمبدأ المقاومة .

فهويعلم أَن يزيد لن يتركه حتى يبايع . . وهولن يُبايع أَبدا . . وإذن ستكون المجابهة بينهما أَمرًا محتومًا . .

ثم إن للحسين طبيعة جيَّاشة ثائرة ، يربطها بالحق ولاءٌ وثيق

وعجيب . وتستمد من فضائل الدين العالية ، ومن تراث حَسَبِه العريق زادًا لا يفنى من الصمود والمثابرة . ! !

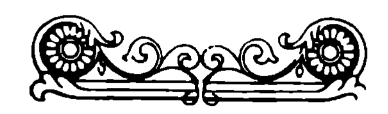
ولن يجد في كيانه ذرَّة تصبر على رؤية يزيد بن معاوية يجلس حيث جلس من قبل – أبوبكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي – . ! !

إن ذلك يعني ضَياعَ مقدّسات عزيزة وغالية . .

وإذا كانت الطبول تدق في دمشق ، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبي سفيان ،

فلا بد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة . .

ولا بد أن يجد المسلمون مَن يَدْرَأُ عنهم الطوفان . . ! !



الفصل الخامس

البطل يتقدّم !!

تلك هي القضية تماما . .

وهذه حقيقتها التي تجلّت أمام الحسين كفلَق الصباح . .

فهي ليست لُغزا ، يحتاج إلى مناقشات تبحث له عن حلول . .

ولا صفقة ، ترتبط اهتماماتها بمغْنم أو مَغرم . .

كما أَنها ليست طموحا شخصيا ، يحتاج إلى موازنة بين فرص النجاح واحتمالات الإخفاق .

إنها قضية الحق وحده . .

حقُّ دِينٍ ، وحق أُمة ، وحق دولة ، وحق مصير . . ! !

فإما أَن ينتصر هذا الحق ، أو فَلْيَمُت الأَبرار دونه . .

ومَن لقيادة الأَبرار في هذا المجال ، كأَبي عبدالله الحسين . خير ابنٍ لخير آباء . . وأَكرم وارثٍ لبيت التضحية والبذل والفداء . . . ؟ !

إن ملايين المسلمين في كل العصور والأَزمان ، يصلون عليه في صلواتهم أَناءَ الليل وأَطراف النهار .

أَليس كل مسلم كان أَو سيكون ، يختم صلاته قائلا :

« التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله . .
« السلام عليك أيها النبي ، ورحمة الله وبركاته .
« السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . .
« أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . .
« اللهم صَلِّ على محمد ، وعلى آل محمد) . .

وأليس « الحسين » من أولئك الآل . . ؟

أَلَيْسَ هو دُرَّتهم الفريدة والمجيدة . . ؟

إذن ، فإن لهؤلاءِ الذين يُصلّون عليه عَبْر الزمان والأجيال حقا عظيما سيقتضيه تضحيات عظيمة . ! !

ومتى تكون التضحية ، إذَا لم تكن اليوم ، ودين المسلمين يتحوّل إلى « مزرعة أُموية » . . وأمجادهم العظيمة يستولى عليها مخلوق عابث . . ومصايرهم الكبرى تُمسِك بها أيدي وُصوليين جُباة ، وجَلاّدين طغاة . . ؟ !

هكذا لم يكن للحسين بد من أن يُقاوِم ، حتى لو لم يدعه من العراق داعٍ ، ولم يأته من الكوفة كتاب . . . كل ما صَنعته وفود الكوفة وكُتُبها إليه . أنها عَجَّلَتْ خروجه . .

وهنا ، لا بد ان ننفي عن تفكيرنا وَهْمًا ردّده كثيرون ، هو أن « الحسين » رضي الله عنه ذهب ضحية خدعة لم يحسن

تدبُّرها . . أَوضحية أَنصار لم يُحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم . . !

كلا ، إن « الحسين » إنما ذهب شهيد إيمان قرّر مختارا ومُشتاق أَن يكون شهيدَه وقُربانَه . . ! !

والآن ونحن نُواجه الوقائع والأَحداث ، سنرى كم كان في تصميمه وبطولته حكيما ، وكيف خطَّط لواجبه ولمسئولياته في رُشد ، ونُهىً ، وسَداد . .

* * *

فعندما جاءَته كُتُب أَهل الكوفة تدعوه إلى القدوم عليهم لمبايعته ، ولدفع العار الذي لحق الأُمة باستخلاف يزيد ، لم يُسارِع بامتطاء راحلته . . بل رأَى أَن يبعث إليهم مبعوثا فَطِنًا وأَمينا يرى الموقف هناك على طبيعته ، ثم يوافيه بالأَنباء .

واختار للمهمة ابن عمه « مسلم بن عَقِيل بن أَبي طالب » وحمَّله إلى الكوفة هذه الرسالة : -

(بسم الله الرحمن الرحيم

(من الحسين بن علي ، إلى مَن يبلُغه كتابي هذا ، من أَوليائه وشيعته بالكوفة

سلام الله عليكم . .

أَما بعد ، فقد أَتتني كُتبكم ، وفهمت ما ذكرتم من

محبتكم ، ورغبتكم في قدومي إليكم .

وإني باعثٌ إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهلي « مسلم بن عقيل » ليعلم لي كُنْهَ أمركم ، ويكتب إلىَّ بما يتبين من جَمْعِكُم . .

« فإن يَكُ أمركُم على ما جاءَتْني به كتبكم وأخبرتني رُسُلُكم . أسرعت القدوم إليكم إن شاءَ الله تعالى) . .

ومضى « مسلم » إلى الكوفة . . ولم يكد يستقر بها حتى سارع الناس إليه يبايعونه على السير تحت لواءِ « الحسين » مهما تكن التضحيات .

وسارع جواسيس يزيد إلى « النعمان بن بشير » وَالي الكوفة وحاكمها يطلعونه على ما يدور ويجري

وكان « النعمان » رضي الله عنه صحابيا جليلا ، فردَّ جواسيس يزيد خائبين ، إذ قال لهم :

« إني لا أُقاتل إلا مَن يُقاتلني . . ولا أَثِبُ إلا على مَن يَثِبُ عَلَيَّ ، ولا آخُذ بالظِّنَّةِ أحدا » . .

وأجابه أحدهم قائلا : (هذا رأي المستضعفين) . .

فزجَره النعمان قائلا :

(لأَنْ أكون من المستضعفين في طاعة الله . . خير من

أن أَكون من الجبَّارين في معصيته) . . ! !

وانصرفوا من حضرة النعمان يائسين ، ليكتبوا إلى سيدهم يزيد ، يخبرونه أَن « مسلم بن عقيل » استولى على أَفئدة الناس ، وأَن « النعمان بن بشير » لا يُحرك ساكنا .

وفي دمشق اجتمع يزيد مع مستشاريه . وكان أَبرزهم ذلك الذي يُسمَّى – سرجون – . .

تُرى بم يشير مَجوسيّ كسرجون . . ؟ ؟

أَشار بعزل « النعمان بن بشير » وتولية عبيد الله ابن زياد والي البصرة ، واليا على الكوفة أَيضا .

ولم يكن عجَبا أَن يقع اختيارسرجون على ابن زياد بالذات ، ذلك أَن – مُرجانه – أَمَّ ابن زياد ، كانت هي الأُخرى جارية مَجوسِيَّة . . ؟ ! !

وابن زياد هذا ، من أَحط وأَشقى من حملَت الأَرض على ظهرها . . لا يَفوق وَلَعَه بالقتل وسَفك الدماء ، سوى وَلَعِه بالقتل وسَفْك الدماء . . ! !

* * *

في نفس الوقت ، كان الحسين عليه السلام ، قد أَرسل مولاه « سليمان » إلى البصرة حاملاً هذه الرسالة إلى نفر من

زُعمائها :

(بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن علي . . إلى مالك بن مسمع ،
والأحنف بن قيس ، ومسعود بن عمرو ،
وقيس بن الهيثم ، والمنذر بن الجارود . .

« سلام الله عليكم . .

أما بعد ؛ فإني أدعوكم إلى إحياء معالم الحق ، وإماتة البدعة والباطل ؛ فإن تُجيبوا تَهتدوا سُبُل الرشاد) . .

إن رسالة « الحسين » إلى أهل البصره ، ترينا كيف كان يعرف مسئوليته ويمضي معها . . فأهل البصرة لم يكتبوا إليه ولم يَدْعوه إلى بلدهم كما فعل أهل الكوفة . . ومع هذا فهو يكتب إليهم ويُعِدُّهم للمجابهة المحتومة - ذلك أنه حين قرر أن ينهض بتبعاتِ دينه وأمته ، كان قراره هذا آتيًا من أعماق روحه وضميره ، وليس من حركة أهل الكوفة ودعوتهم إياه . .

* * *

لم يكد مبعوثه « سليمان » يصل البصرة ، ويُسلِّم رسالته لزعمائها ، حتى سارع أحدهم ، وهو المنذر بن الجارود إلى ابن زياد حيث أفشى له سِرّها وأطلعه عليها . . وألقى ابن زياد القبض

على « رسول الحسين » ، وفي وحشية تليق به قام بقتله وصَلْبه . .
ثم تهيأَ للسفر إلى الكوفة ، ليباشر مهمته المجرمة هناك . ! !

وقبل رحيله ، دعا أَهل البصرة إلى اجتماع عام خطبهم فيه فقال : (ياأَهل البصرة . . إن أَمير المؤْمنين يزيد ! ! قد ولَّاني مع البصرة الكوفة ، وإني سائر إليها . وقد خلَّفت عليكم أَخي عثمان بن زياد . . فإياكم والخلاف والإرجاف . . فوالله لئن بلغني عن أَحدكم أَنه خالَف أَو أَرجَف ، فلأَقتلنه ووليَّه ، ولآخذن الأَدنى بالأَقصى . . والبريءَ بالمذنب ، حتى تستقيموا — أَنا ابن زياد . . وقد أَعْذَرَ من أَنذر) . . ! !

هكذا تحدث إلى الناس بالبصرة حديثَ طاغية . . على أَن التجربة تعلمنا أَنه ليس هناك أَجبن من الطغاة . . وأَن ما يتظاهرون به من بأْس شَرِسٍ وشجاعةٍ زائفة ، إنما يستمِدُّونهما مما يمسكون بأَيديهم من سلطان . . ! !

فابن زياد هذا ، بكل طغيانه ، وقسوته ، وإجرامه ، يخاف أَن يدخل الكوفة سافِرًا منظورا ، فيدخلها متنكرا ، ومُخْفِيًا سِحنته ووجهه وراءَ لثام وقِناع . . !

ومن المفارقات الباسمة ، أَن أَهل الكوفة الذين كانوا ينتظرون مقدم « الحسين » على شوق ، لم يكادوا يرون قافلة ابن

زياد ، حتى حَسبوها موكب « الحسين » فراحوا يفسحون له الطريق هاتفين :

(مَرحبًا يابن رسول الله . . قَدِمْتَ خيرَ مَقدم) . . ! !

ولَئن كانت هذه الحفاوة بالحسين قد ملأت نفس ابن زياد مرارة وحقدا ، إلا أنها أَلْقَتْ على قلبه المنخلع الجبان كثيرا من الأَمن ، إذا طمأَن إلى أَنهم لم يعرفوه ، وبالتالي لن يَصلوا إليه بسوء .

وحين بلغ دار الإمارة ، واحتمى بشرطتها وحرسها ، راح ينصب شباكه ليقتنص رسول الحسين وابن عمه « مسلم بن عقيل » الذي كان يُمارس نشاطه الجليل في هِمَّةٍ مُوفقة وناجحة .

* * *

كان عزل « النعمان بن بشير » عن الكوفة ، وتولية ابن زياد مكانه نذيرا رهيبا لمسلم بن عقيل . . فبعد أَن كان يجتمع بالناس في غير تحرُّج ولا تخوُّف ، راح يُغيرِّ مَقَرَّه ، فينتقل إلى دار أُخرى ، ويحيط نشاطه بكتمان كبير

كانت الدار الجديدة التي انتقل إليها هي دار « هانئ بن عُروة » من صَفوة أَهل الكوفة وأَشرافهم

وكان ابن زياد قد اصطحب معه من البصرة بعض صفْوتها

وزعمائها ، ومن بينهم « شريك بن الأعور» . . وكان « شريك » شيعيًّا يكتُم إيمانه وولاءَه ، كذلك كان صديقا لـ « هانئ بن عروة » الذي يتخفَّى « مسلم بن عقيل » في دار. . .

ورغب « هانئ » إلى صديقه « شريك » أن ينزل عليه ضيفا في داره فقبل دعوته ، حيث الْتقَى فيها بمسلم بن عقيل فبارك جهوده وجهاده وحثَّه على المثابرة .

وهنا نلتقي بصورة من عظَمة آل البيت وأخلاقهم وشَرفهم في النضال والقتال .

ذلك أن « شريك بن الاعور» مرض ، وخفَّ ابن زياد لعيادته حيث هو في دار هانئ . .

ورآها « شريك » نفسُه فرصة سانحة للإجهاز عليه والتخلص منه . فاتفق مع « مسلم بن عقيل » أن يُفاجئَ ابنَ زياد عندما يجيئ إليه ، ويضربه بسيفه ضربة تُريح منه البلاد والعباد .

ولكن ابن زياد جاءَ ، وجلس ، وطالت جلسته ، ثم غادر الدار دون أن يناله سوء . .

وبُعَيد انصرافه عاتب « شريك » « مُسلما » وسأله : لماذا لم تُنجز ما اتفقنا عليه وتتقرب إلى الله بقتله . . ؟ فأجابه «مسلم » :

(لقد منعني من ذلك أمران : أولهما ، كراهية هانئ

أن يُقتَلَ في داره . .

وثانيهما : أَن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهانا عن

الغِيلة ، وقال : لا يَفتِكُ مؤمن) . . ! !

هذا هو الخلُق الشريف الذي يُناضل به أَهلُ البيت الكرام ! !

أما « مسلم » فقد واصل أَخذ البيعة سرًا حتى بايعه ثمانية عشر أَلفا .

وآنئذ ، وأَمام تلك الأَعداد الكثيرة من الأَنصار والمبايعين ، أَرسل « مسلم » إلى « الإمام الحسين » يبشره بما تَمَّ ، ويدعوه للقدوم . . .

وآنئذ أَيضا ، كان ابن زياد قد جُنَّ جنونه لإخفاقه في القبض على « مسلم » وفَشَل شرطته في معرفة مكانه ، هنالك لجأَ إلى حِيَلهِ الخبيثة ، فاختار واحدا من مواليه ، واسمه - معقل التميمي - وأَعطاه صرة بها ثلاثة آلاف درهم ، وأَمره أَن يَجوب خلال الكوفة ، مُجردا من نفسه شخصا غير شخصه . . زاعما ومتظاهرا بأَنه واحد من شِيعَة « الحسين » يريد أَن يأْخذ مكانه بين صفوف أَنصاره ، ويريد أَن يُسْهِمَ بما معه من مال في شراء سلاح لأُولئك الأَنصار ! !

وبعد طول تَطواف ، وطول تَعسُّس ، اهتدى الجاسوس إلى ضالته المنشودة ، فقد تعرَّف إلى رجل صالح من أصحاب « مسلم » قاده أخيرا إلى مكانه ومقره . .

وأتقن الخبيث دوره حتى خُدِعوا به جميعا ، وأصبح أثيراً لديهم ، يزور « مسلما » كل يوم حيث يقضي معه النهار كله . . ثم يقضي الليل بأجمعه مع ابن زياد ، ناقلاً إليه الأخبار والأسرار . . ! !

وحين تمكَّن ابن زياد من قَنصِه الثمين ، أرسل في طلب « هانئ » وفاجأه قائلا : (إيه يا هانئ بن عروة ، ما هذه الأمور التي تُحاك في دارك لأمير المؤمنين (! !) ، جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال ، وظننت أن ذلك يخفى عليّ) . .

كانت المفاجأة أليمة الوقع على هانئ . . فرأى أن يخادع ابن زياد بالإنكار ريثما يستعد لمجابهته التي أصبحت فَوْرِيَّتُها محتومة . .

لكن ابن زياد أذهله بمفاجأته الثانية ، فدعا جاسوسه — معقلا — الذي انتصب أمام « هانئ » كَلَيْلِ الشتاء طويلا باردا . . وسأله ابن زياد : أتعرف هذا ؟ ؟

وسُقِط في يد « هانئ » وأدرك كل شيئ . . وسرعان ما سيطرت رجولته على الموقف في لحظة ، وصاح بابن زياد :

« أجلْ أعرفه . .

وإن « مسلما » في داري ، وهو ضيفي ،

ولن أُسْلمه أبدا » ! !

وجُن جنون الطاغية ، فنادى جلّاديه وأمرهم أن ينزلوا به كل عذاب دون القتل حتى لا يستريح بالموت ! ! .

وتناوَشه المجرمون ، يكسرون أنفه ، ويمزقون لحم وجهه ، ويهشمون عظامه ، وهو صابر مُحتَسِب . ! !

ولما شَفَى ابن زياد نفسه المظلمة بتعذيبه ، أمرهم أن يخرجوا به إلى السوق ويضربوا عنقه . .

وطار خبر مصرعه واستشهاده إلى « مسلم بن عقيل » فجمع رجاله وأنصاره ، وسار بهم إلى قصر الإمارة حيث ضربوا حوله حصارا رهيبا .

لماذا لم يضرب « مسلم » ضربته من فوره . . ؟ ؟

لماذا لم يقتحم القصر على ابن زياد ، وقد كان معه ساعتئذ من الأنصار المسلَّحِين أضعافُ أضعافِ الحرس الذين يحرسون الطاغية ؟ ؟

لماذا لم يستغل تلك الثورة العارمة التي كانت تشتمل في أنفس الناس نِقمة وغضبا لمقتل « هانئ بن عروة » . . ؟ ؟

هنا ، ينجو ابن زياد مرة أخرى من قتل مُحقَّق بسبب أَنَاةِ « مسلم » وفضائله ! !

ف « مسلم » يعلم أن « الامام الحسين » إنما أرسله ليأخذ له البيعة ولم يأْذَن له بقتال . .

وهو حريص على أن يلتزم الحدود التي رسمها له ابن عمه وقائده . . !

وهكذا قضى اليوم كله مكتفيا بالحصارالذي ضربه وأحكمه .

بينما قضى ابن زياد ومَن معه في القصر يومهم في نَسْج الشباك وإعمال الحِيلة ، فأوعَز إلى بعض زعماء الكوفة وأشرافها الممالئين ليزيد ، والذين كانوا معه داخل القصر ، أن يُطِلُّوا على المحاصِرين ساعة الغروب ، ويخبروهم أن جيش الشام في طريقه إلى الكوفة ، سيصلها غدًا أو بعد غد . . . وسيحيل أحياءَهَا قتلى ، ودورها تُرابا . ففعلوا ما أمرهم به ابن زياد ، وأتقنوا عملية بَثٍّ الرعب في القلوب ، ثم نصحوا الثوار أن ينصرفوا على أن تُعالَج الأمور فيما بعد ، بالتفاهم والمفاوَضة . .

وانصرف الثوار– بعضُهم صرفه الفزع . . وبعضهم صرفه

احتمال الوصول إلى تفاهم يحقن الدماء . . ! !

وفي الصباح انبثَّت شرطة ابن زياد في طول الكوفة وعَرضها باحثين عن « مسلم بن عقيل » حتى عثروا عليه في إحدى الدور ، فقاومهم وحده بسيفه وعزمه ، ولكن دون جَدْوَى . .

وحُمِل إلى الطاغية ، حيث وقف أمامه صامتا ورافضاً أن يُلْقِي عليه السلام .

وسأله ابن زياد : أتُراك ترجو الحياة والبقاء . . ؟ ؟

فأجابه « مسلم » .

«إذا كنتَ تُريد قتلي ، فدعْني أُوصِ
إلى بعض الذين هنا من قومي » . .

أَجل . . لم تشغله حياته . . إنما تشغله حياة ابن عمه « الحسين » الذي أَرسل إليه من قبل يدعوه للقدوم وهو الآن في طريقه إلى الكوفة ! !

كما تشغله ديون اقترضها منذ قدومه ، حيث أَسهم بها في شراء العتاد والسلاح . . ! !

وأَجابه ابن زياد إلى طلبه ، فأَمر – عمر بن سعد – أَن يستمع لوصيته .

وأَوصاه « مسلم » فقال :

(إن عليَّ بالكوفة دينا اقترضته ، فإذا قُتلت فبع سيفي ودرعي ، وخُذ من غلَّتي بالمدينة حتى تَقضيه عني . . وإني قد أَرسلت إلى « الحسين » أُخبره أَن الناس ينتظرونه ، وأُدعوه للقدوم ، ولا أُراه إلا مُقبِلاً . فابعث إليه من يردّه ويخبره أَن أَهل الكوفة لا عهد لهم) . .

ثم أَسلمه الطاغية لجلّاديه ، فضربوا عنقه . . ثم رموا رأْسه الكريم من حالق إلى قارعة الطريق . . وأَتْبَعوا الرأْس الجسد . .

ثم انصرفوا إلى لهوهم ومرحهم ، فقد كانت الليلة ليلةَ العيد . !

وفي الصباح صلىَّ - ابن مرجانة - في المسجد الجامع صلاة عيد الأَضحى . . ثم أَمر برأْس « مسلم بن عقيل » ورأْس « هانيْ بن عروة » فغُرسا في أَسِنَّة الرماح ثم أُرسلهما إلى الشام ، هدية لمن يدعوه أَمير المؤمنيْن . . ! !

* * *

في الوقت الذي كان رأْس « مسلم وهانئ » يقطعان الفيافي من عراق ابن زياد ، إلى شامِ يزيد . . كان « الإمام الحسين » يقطع طريقه من مكة إلى الكوفة ، دون أَن يعلم بعد ، ما وقع بها من أَهوال ! ! ! . .

وكان قبل خروجه قد صمد لمعارضةٍ عاتية من بعض أهله وأصحابه الذين خشوا عليه عواقب الخروج .

* فهذا « عبدالله بن عباس » رضي الله عنه ، يجري معه حوارًا طويلا يتوسل إليه خلاله كي يبقى حيث هو

يقول له « ابن عباس » :

(يا ابن عَم . . إنه قد أَرجَف الناس أَنك سائر إلى العراق ، فبيِّن لي ما أَنت صانع ؟

فيجيبه « الحسين » :

(إني قد أَجْمَعْتُ المسير في أَحد يومَيَّ هذين إن شاءَ الله تعالى) .

ويعود « ابن عباس » ليقول له :

(إن كانوا قد دَعَوْك إليهم بعد أَن عزَلوا أَميرهم ، ونَفَوْا عدوهم ، ووطَّأُوا أَكْناف بلادهم ، فَسِرْإليهم . .

« وإن لم يكونوا فعلوا ، فإنهم إذن يدعونك لِفتنة وقتال . .

« وإن أَهل الكوفة لا عهد لهم ، وإني أَخشى عليك الهلاك . .

« أَقِم بهذا البلد حيث أَنت . . وإذا كنت لا بد خارجا ، فاذهب إلى اليمن ، فإن به حُصونا وشِعابا ، ولأَبيك به شِيعة) . . .

ويزداد « الحسين » تصميما ويقول :

(يا ابن عم . . إني لأَعلم أَنك ناصح مُشفِق ، ولكني قد عزمت على المسير) . .

وتضيق الأَرض بابن عباس ، وتَحتِدم أَعصابه ويقول للحسين :

(لولا أَن يُزرِىَ الناس بي وبك ، لَشَبَّثْتُ يدي في رأَسك ، فلا أَدعك تذهب . .

« ولكن إذا كنت لا بد سائرا ، فلا تَسِر بأَولادك ونسائك ؛ فإني أَخشى أَن تُقتل وهم ينظرون إليك كما قُتِل عثمان) . . ! !

* وهذا « عبدالله بن عمر » لا يعلم بمسيرته إلا بعد خروجه ، فيمتطي ظهر راحلته ، ويقطع الطريق وراءَه وَثْبا ، حتى يلحق به على بعد ثلاثة أَيام من مكة .

ويسأَله : أَين تريد ؟ ؟

فيجيبه : الكوفة ، هذه كُتُبُ أَهلها وبيعتُهم ، وإني

داهب إليهم .

فيقول له ابن عمر :

(إني مُحدِّثك حديثا . .

« إن جبريل أَتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فخيّره بين الدنيا والآخرة ، فاختار الآخرة ولم يُرد الدنيا . .
وإنك بضعة من رسول الله . . والله ما يَليها أَحد منكم أَبدا ، وما صرفَها الله عنكم ، إلا للذي هو خير لكم) .

ولكن « الحسين » لا ينقض عزمه ، فيضمه « ابن عمر » إلى صدره ويقبله ويقول وهويبكي :

(أَستودعُك الله مِن قتيل) . . ! !

كذلك كان « أَبو سعيد الخُدرِيّ » صاحب رسول الله قد حاول ثَنْيَه عن عزمه قبل خروجه من مكة ، وجلس يقول له :

(لقد سمعت أَباك يقول وأَنا معه بالكوفة : والله لقد مَلَلْتهم وأَبغضتهم ؛ فما لهم ثَباتٌ على أَمر . . ولا صَبْرٌ على السيف . . ومن فاز بهم ، فاز بالسهم الأَخْيَب) ! ! . .

كل تلك المحاولات الحريصة على سلامته وحياته ، لم

تلِن له قَناة ، ولم تُوهِنْ له عزما . . ! !

ذلك أن القضية التي خرج البطل حاملا لواءَها ، لم تكن قضيةً شخصية تتعلق بحق له في الخلافة . . أو ترجع إلى عداوة شخصية يُضمرها ليزيد . . كما أنها لم تكن قضيةَ طموحٍ يستحوذ على صاحبه ويدفعه إلى المغامرة التي يستوى فيها احتمال الربح والخسران . .

كانت القضية أَجلَّ ، وأَسمى ، وأَعظم . .

كانت قضيةَ الاسلام ومصيره ، والمسلمين ومصيرهم . .

وإذا صمَت المسلمون جميعهم تِجاه هذا الباطل الذي أنكره البعض بلسانه ، وينكره الجميع بقلوبهم ، فمعنى ذلك ، أن الإسلام قد كَفَّ عن إنجاب الرجال . . ! ! !

معناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الانتماءِ لهذا الدين العظيم .

ومعناه أيضا ، أن مصير الإسلام والمسلمين مَعًا ، قد أَمْسَى مُعلَّقًا بالقوة الباطشة ، فمَن غَلَبَ ، ركِب . . ولم يعد للقرآن ، ولا للحقيقة سلطان . . ! !

هذه هي القضية في رُوع الحسين . .

وبهذا المنطق أَصرَّ على الخروج . .

ومعنًى آخر نبيل ، أفْصحَ عنه في حواره مع ابن عباس حين كان يُلحّ عليه أن يبقى في مكة ، فقال له :

« إني أخاف أن تُستباحَ بسبي » . ! ! !

إنه برفضه مبايعة يزيد ، وبتصميمه على مقاومته ، يرى المجابهة أمرا محتوما . .

ولم يُرِدْ لهذه المجابهة أن تقع في البلد الحرام ، فهو على بينة من سَفالة خُصومه . . وهو يعلم أنهم لن يتورّعوا عن هدم المسجد ذاته والكعبة ذاتها إذا اضطرهم القتال لذلك .

ثم إن أهل الكوفة وقد دَعَوْه ، ووُثِّقت دعوتهم بكتاب ابن عمه « مسلم بن عقيل » فقد صار لِزاما عليه وَفْق اقتناعه بعَدالة قضيته أن يُسارع إلى تلك الجبهة التي أعدَّت نفسها لمناصرته والمقاومة معه .

ولكن ، ماذا عساه يصنع ، حين يعلم أن ابن عمه قُتِل . . وأن الذين بايعوه قد لاذوا بالفرار . . ؟

لن يصنع شيئا سوى المضي مع عزيمته وعزمه . . ذلك أنه لم يخرج ليُحرز نصرا مضمونا . بل خرج ليؤكِّد حق الإسلام في حماية نفسه من الضلال والإفك ، ولِيُكَفِّر في تضحية مجيدة عن خطيئة الصمت التي اقترفها الناس طائعين ، أومكرهين . . ! ! !

وليكن بعد ذلك ما يكون ! !

إن الذي يعنيه من ناحية الجوهر ، هو أن يؤدي ما رآه واجبا مقدسا عليه نحو دينه ونحو الحق .

والذي يعنيه من ناحية الشَّكل ، أَلا تدور المعركة بينه وبين يزيد في مكة فيكون سببا في استباحة حرمتها وقداستها .

« لأَنْ أُقْتلَ في أَي مكان من الأَرض ، أَحب إلي من أَن أُقتل هنا ، فَيُستباح البلد الحرام بسبي » . . ! !

وهكذا طاف بالبيت الحرام ، مؤَديا له التحية التي لم يكن يدري أَنها تحية الوداع ! !

ثم تَصَدَّرَ القافلة التي انتظمت أَهله المباركين من زوجات ، وأَخَوات ، وإِخوة ، وأَبناءِ عم ، وأَبناءِ إِخوة . . كما انتظمت نفرًا من أَنصاره وصَحْبه . .

ولقد اصطحب معه من أَهله كل هذا الجمع ؛ لأَنهم - غالبًا - تَشبَّثوا بالرحيل معه . . ولأَنهم وَفْق التدبير الذي كان مرسومًا ، سيقيمون في البيوت التي ستُعَدُّ لهم في الكوفة ، قَريبين منه وتحت عينه ورعايته . . ولأَنه أَخيرًا - وربما كان هذا أَهمَّ دواعي اصطحابهم معه - خَشِيَ حين يشتبك مع يزيد في قتال ،

أَن ينتقم منه في شخص أَهله هؤُلاءِ من زوجات وإخوة وأَخوات ، فيهاجِم مكة ، ويستبيحها بسببهم ، الأَمر الذي كان « الحسين » يخشاه دائمًا ويتوقّاه . . ! !

* * *

ومضى البطل إلى غايته . .

وأَخذت النُّذُر تلقاه على طول طريقه . . في أَول الطريق لقيه الفرَزْدَق الشاعر قادمًا من الكوفة .

وسأَله « الحسين » (كيف تركت الناس من ورائك) ؟

فأَجابه الفرزدق : (تركتهم ، قلوبهم معك . . وسيوفهم مع بني أُمية) .

إنه نذير من رجل له بالأُمور فِطنة وبَصَر ، لكن البطل العظيم لا يزيد على أَن يتلو الآية الكريمة :

(لِلَّهِ الأَمرُ من قبلُ ومِن بعد) . . ! !

ويمضي في طريقه . . وبعد أَيام يلقاه « عبدالله بن مطيع » قادمًا هو الآخر من العراق ، فلا يكاد يرى « الحسين » حتى يتعلّق بثيابه صارخًا وراجيًا أَن يعود ، قائلا له :

(أُناشِدُك الله أَلا تذهب للكوفة ، فوالله لئن أَتيتها لَتُقتَلَنّ) .

فما يزيد على أن يتلو الآية الكريمة :

(قُل لَن يُصِيبَنا إلا ما كَتَبَ الله لنا) . . ! !

ويستأنف السير مع قَدْرِه وقَدَرِه . .

وبعد مرحلة أُخرى من الطريق يلقاه رجل من بني أَسد ، قادم من الكوفة أَيضًا، فيسأَله « الإمام » عن أَخبارها .

فيجيبه الرجل : لقد قُتل مسلم بن عقيل ، وهانئ بن عروة) . . ! !

نبأٌ يهدُّ الجبال . .

ولكنْ ، مَن هو بإيمانه أَقوى من الجبال ، ماذا تكون رُدودُ فِعلِ هذا النبأ الرهيب لديه . . ؟

أَرسل بصره في الأُفق البعيد ، ثم قال :

(إنَّا لله ، وإنا إليه راجعون
« عِنْدَ الله نَحْتَسِبُ أَنفُسَنا ولا خيرَ في العيش بعد هؤُلاء) . . ! !

إن مصرع « مسلم وهانئ » كان كافيًا لصرف « الحسين » عن غايته ، لو أَنه كان في موقفه وخروجه إنما يستمد شجاعته وجسارته من مساندة أَهل الكوفة له . ، وليس من إيمانه واقتناعه

وضميره

فمعنى قتل « مسلم وهانئ » ، أن الجبهة كلها قد انهارت ، وأن أهل الكوفة – على أحسن الظنون بهم – قد باتوا عاجزين عما كانوا قد جَنَّدوا أنفسهم له .

وهذا كافٍ لكي يَلْوِيَ « الحسين » زمام قافلته ويعود .

لكن تصميمَه الوثيق كان يقوده .. وقدَرَه العظيم كان يُناديه .. ! !

سار – رضي الله عنه – يقطع الصحاري المتَلظِّية ، مُجتَازًا في مَشقَّةٍ وكَبَد ، أغوارهَا ونُجودها .. مُعانيًا لَفْحَها الضَّارب كريح السَّمُوم ، حتى بلغ مكانًا يُدعى « بطن الرُّمَّة » ، فحط رِحالَه ، وضرب خيامه ليستريح ومَن معه ..

ثم كتب لأهل الكوفة كتابًا يخبرهم أنه في الطريق إليهم ، وأعطى الكتاب واحدًا من أصحابه هو : « قيس بن مسهر الصيداوي » وأمره أن يسبقه به إلى الكوفة

ومضى « قيس » لسبيله .. بيدَ أنه لم يكد يبلغ القادِسيَّة حتى لقيته قُوات ابن زياد ، فاعتقلته وصحبته معها إلى الكوفة .

وهنا نرى مشهدًا بطَلاً ، لرجل بَطَل ! !

فقد أَمره ابن زياد أَن يُشْرِفَ على الناس من شُرفة قصره ، ويلعن « الحسين » . . ويلعن على الملأَ أَنه – حاشاه ثم حاشاه – كذَّاب وابن كذَّاب ! !

ونظاهر « قيس » بالطاعة ، وصعد مع الحرس إلى حيث أَراد ابن مرجانة . .

ثم أَلقى على الجموع التي جمعوها وحشدوها نظرة وابتسامة ثم صاح :

(أَيها الناس . .

إن « الحسين بن علي » من خير خَلْق الله ، فأَجيبوه وانصُروه . .

« وإن الكذَّاب بن الكذَّاب ، هو عُبَيْد الله ابن زياد ؛ فالْعنوه والْعنوا أَباه) . . ! !

هل تستطيع كل فصاحة البشر ، أَن تُعَلِّق على هذا الموقف بثناء ، أَو إطراء ، أَو تمجيد . . ؟ ؟ ! !

كلاً . .

فلنلق نظرة مُزْدَرِيةً على ابن زياد ؛ لنرى ما أَنزله به موقف « قيس » العظيم من خزيٍ وإذلالٍ وسُعار . .

لقد جُن كالكلب المسعور، وراح يلعن ويرجُم شياطينه لأنهم أمهلوه حيًا حتى أكمل عبارته القاصمة.

ثم أمرهم أن يُلقوا مه حيًّا من أعلى سور القصر، فقُذِف به، حيث اندقَّت عظامه، وغرَبَت حياته[1] .. ! !

* * *

لم يعلم «الحسين» بمصير «قيس» بعد..

ولقد استأنفَ سيره ومَسراه حتى انتهى إلى مكان يُدعى - زرود - وهناك أبصر فسطاطًا مضروبًا. فسأل عنه فعلم أنه لـ «زهير بن القَين»، فأرسل «الحسين» في طلبه، فتثاقَل أول الأمر، ثم ذهب إلى لقائه ضَجِرًا..

وحين التَقَيا، أسَرَّ «الحسين» إليه حديثًا، لم يكد الرجل يسمعه حتى تهلَّل وجهه، وامتلأ غبطة وبِشرا.. ! !

ثم سارع فنقل فسطاطه إلى جوار فسطاط «الحسين» وقال لمن كان معه من أهله: (مَن أَحبَّ منكم أن يتبعني، وإلاَّ فإنه آخر العهد بيننا).

ثم الْتفت إلى زوجته وقال لها: «أَماَّ أَنت، فالْحَقي

(١) هناك رواية تاريخية أخرى تقول: إن صاحب هذا الموقف. هو «عبد الله بن يقطر» أخو «الحسين» من الرضاعة.

بأَهلك ؛ فإِني لا أُحب أَن يصيبك بسبي سوء » . .

وانصرف أَقرباؤه عائدين إلى موطنهم ، مصطحبين معهم زوجته . .

ترى ماذا قال له « الحسين » حين ناجَاه . . ؟ !

هل وعَده بمنصِب ، أَو مَغنم . . ؟ ؟

لو كان ذلك ، ما سرَّح زوجته ، ولا قال للذين كانوا معه مُودِّعًا إياهم : « إنه آخر العهد بيننا » . .

ثم بأَيٍّ مَغنم يَعِدُه « الحسين » وقد جاءَته الأَنباء بمقتل رُسُله ، وشراسَةِ عَدُوِّه . . ؟ ؟

أَغلب الظن أَنه حدَّثه عن قضيته العادلة ، ثم ختم حديثه معه قائلا : تلك هي القضية ، ففِيمَ إبطاؤُك عن الجنَّة . . ؟ ! !

وتابعَت القافلة سيرها ، كاسِبَةً هذا النصير الجديد ، ومنتظمة رجالا آخرين كانوا ينضمون إليها خلال عُبورها بقُراهم وخيامهم عَبْر الطريق الطويل .

وبعد مسيرتهم من جديد ، أَبصروا فارسًا يُثير النَّقْعَ ، ويطوي الأَرض . .

لقد كان رسولَ – عمر بن سعد – الذي أَوصاه « مسلم بن

عقيل – –قبل مقتله بأن يرسل للحسين يخبره بما حدث ، وينصحه بالرجوع . .

لم يبق في الأمر إذن شك ولا ريب . ! !

ولم يدر في خاطر الحسين أدنى تردُّد ، بل انتضَى عزمه وواصل سيره . .

كل ما هنالك ، أنه أَعْفى أُولئك الذين تطوَّعو لنصرته من رجال القبائل التي مَرّ بها خلال سفره .

لقد انضمُّوا إليه على أملٍ في النصر . أما الآن فالأمل في الاستشهاد وحده . . ! !

ومضى في صحبة أهله ، وخاصَّتِة ، والنصيرِ الجديد والعظيم « زهير بن الْقَيْن » . .

* * *

كان ابن زياد ، قد فرض حول الكوفة حصارًا مُحكَمًا ، فلا يخرج من أهلها أحد ، مَخافة أن ينضموا لموكب البطل القادم إلى الكوفة .

ولم يأذن لأحد من أهلها بالخروج إلا إذا كان ذاهبًا للحج ، شريطة ألا يكون يحب « الحسين » أو التشيُّع له . . ! !

وفي نفس الوقت ، أَطلق من وراء مَشارِفها وحدودها البعيدة طلائعَه وسراياه ، آمِرًا إياها أَن تتربَّص بقافلة « الإمام الحسين » . فإذا الْتقَتْ بها إحداها احتجزتها حيث هي ، ثم أَرسلت بالخبر لابن زياد .

وعند إحدى القرى الرابضة على حدود العراق ، الْتقى ركب «الإمام» بإحدى تلك الطلائع .

كانت تضم أَلف فارس ، تحت إمرة « الحر بن يزيد التميمي » .

ولم يكن « الحسين » يراهم قادمين نحوه ، يتصببون عرقًا من وقدة الحر وقد تَيَبَّسَتْ شفاهم من الظمأ ، حتى أَمر فتيانه أَن يستقبلوهم بالماء ، فشربوا حتى رَوَوْا ، ثم جلسُوا في ظلال خيولهم . . وأَذَّن مؤَذن لصلاة الظهر . فسأَل « الحسين » الحر بن يزيد : (أَتصلي بأَصحابك وأُصلي بأَصحابي) . . ؟

وأَجابه الحر قائلا : (بل نصلي جميعًا بصلاتك) . .

ومضى الوقت بعد الصلاة في حديث وتَحاوُر . . ثم صلوا العصر حين جاءَ موعده . واستأنفوا بعد الصلاة الحِوار قال « الحسين » لهم :

« إني لم آتكم حتى أَتتني كُتبكُم ، وقَدِمَتْ عليَّ رسُلكم .

« فإن أعطيتموني ما أطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مِصْرَكُم ، وإن تكن الأُخرى انصرفت عنكم » .

لكن – الحر بن يزيد – أنبأ « الحسين » رضي الله عنه أنه لا يدري من الأمر شيئًا ، وأنه كُلِّف من أميرِ الكوفة والبصرة – عبيد الله بن زياد – بمهمَّة مُحدَّدة ، هي انتظارركب « الحسين » حين يجيْ ، ثم قيادته إلى ابن زياد بالكوفة . .

ابنُ زياد بالكوفة . . ؟ ؟ ! !

يالَهوانِ الدنيا حين يُمسك بمقاليدها السِّفْلَة ، وتَهيضُ فيها أقدارُ الكِرام . . ! !

قال الحسين : « الموت أَدْنَى إليك مما تريد » . . ! !

ثم أَمر أَصحابه ، فحملوا متاعهم ، وركبوا رَواحِلهم ، ثم تقدمهم في المسير منصرفًا عن الكوفة ، مُغَيِّرًا اتجاهه . .

لكن « الحر بن يزيد » أمر فرسانه فقطعوا عليهم الطريق .

وصاح به الحسين : ماذا تريد . . ؟

قال الحر : أن تصحبني إلى ابن زياد . .

قال الحسين : إذن والله لا أَتْبَعُك . .

وأجابه الحرّ : إذن والله لا أَدَعُك . .

وصاح به الحسين : إنها الحرب إذن . . ! !

وهنا لانَتْ عريكةُ الحرّ بن يزيد فقال : « إني والله لا أُريد قتالك ولم أُومَر به ، وإني لأَرجو أن يرزقني الله فيك العافية ، ولا أُبْتَلَى بشيْ من أَمرك . ولقد أُمِرتُ إن أَنا لَقيتُك أَلا أُفارقك حتى أُخبرَ الأَمير ابن زياد ، فإن رأَيت فاتَّخِذْ طريقًا لاتُدخِلُك الكوفة ولا تردُّك عنها حتى يأَتينا رأْي الأَمير »

ومضى ركب « الإمام الحسين » يضرب في تلك الرقعة من الأَرض ، يَتيامَنُ ، مرة ، ويتَياسَرُ أُخرى . وفِرسانُ ابن زياد بقيادة الحرّ يذودون الركب عن البادية كلما همَّ أَن يُدْلِف إليها ويدفعونه تجاه الكوفة في رِفق . .

ولم يكد الرَّكْب يبلغ « نِينَوَى » تلك القَرية التي قيل إنها كانت موطن النبي « يونس » عليه السلام ، حتى تراءَى لهم من النَّقع المثار ، راكب يغذُّ السير ويطوي الرمال . . ولبثوا مكانهم ينتظرون ، فإذا هو رسول من ابن زياد للحر بن يزيد يحمل إليه كتابًا يقول فيه : « . . أَما بعد ، فشددْ على « الحسين » في المكان الذي يُوافيك عنده كتابي . . ولا تُنزِلْه إلا بالعَراء ، في غير حِصْن وعلى غير ماء . . وقد أَمرتُ رسولي أَلا يفارقك حتى يأَتيني بإنفاذ أَمري ، والسلام » . ! !

وتلا – الحر – الكتاب ، ثم ناوله « الحسين » فتلاه . .

وأَراد الحسين أَن يستأْنف سيره متجهًا صَوب مَسِيل ماء ، فمنعه — الحرّ — الذي كانت تحاصره نظرات الرقيب الوافد من عند ابن زياد . . وغيرَّ « الحسين » اتجاهه ، وسار بركبه والفرسان عن جانبيه .

ولكن إلى أين . . ؟

لقد خَشِيَ — الحرّ — أَن تُفْلِت الفرصة منه ، فتصدَّى للركب السائر ، وأَصرَّ على النزول حيث انتهت خطواته . .

ونزل الركب من فوق رواحله

وألقى الحسين بصره على الفضاءِ الموحِش حوله . .

ثم سأَل : ما اسم هذا المكان . . ؟

قالوا : اسمه كَرْبَلاء . .

فاختفى تفاؤُله وراءَ إحساسٍ بالجزع ، وتذكَّر ذلك اليوم الذي تحدثنا عنه من قبل . . يوم كان « الإمام علي » في طريقه إلى « صِفِّين » فوقف على نفس المكان ، وقال :

(هُنا ، محطُّ رحالهم ، ومُهراقُ دمائهم) . .

تذكَّر « الحسين » المشهد كله ، فقد كان يومئذ مع أَبيه .

وذاب الوجود من حوله في لحظاتِ تأَمُّلٍ حارة ، صَاهِرَة . .

كَرْبَلاء . . ؟ ؟ ! !

ها هي ذي بين نُبوءَة الأَمس ، وواقع اليوم ، ومصير الغد ! !

أَيُّ سِرٍّ للقدر ، يَنْشُره ويَطويه . . يُظهره ويُخفيه . . ؟ !

وأَيَّةُ حكمة إلهية ، تقود حياتنا بين مطالعها ومغاربها مُذعِنَةً لقدَرِها الحكيم ، وتقديرها العليم . . ! !

لقد راح البطل يستعد بخواطره ذلك اليوم ، وتلك الواقعة ، وتلك النُّبوءَة . . ! !

وراح يهزُّ رأَسه المضيءَ في حركة مُتأَمِّلة ، كَمَن أَدرك الحكمة وطالَع المصير . .

وارتسمت أَمام خاطره بحروف كِبارٍ آية القرآن العظيم :

﴿قُلْ لو كُنْتُم في بُيوتكم لبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم .

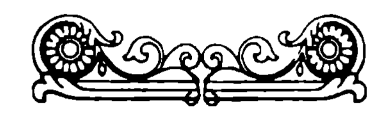
« ولِيَبْتَلِيَ الله ما في صُدورِكم ، ولِيُمَحِّصَ ما في قلوبكم . والله عليم بذات الصُّدُور﴾ . .

ونهض في قوة وطمأنينة ، وراح يشارك صَحبه في شدِّ الخيام ، فقد آن للعقيلات والأَخوات أَن يسترِحْن ، بعد ما أَضناهُن لُغوبُ السفر ، ومشقَّة الطريق . .

وراح وهو يعمل ، يردد في حبور وتهلُّل آية الله في كتابه :

(إنَّ وَلِيِّيَ الله الذي نزَّل الكتاب

وهو يتولىّ الصالحين) . . . ! !



الفصل السادس

المأساة، والعظَمَة!!

كان اليوم – غُرّة المحرم . . .

والعام – الواحد والستين للهجرة . . .

والمكان – كَرْبَلاء . . على مقربة من نهر الفُرات . .

وقبل أَن نبلغ اليوم العاشر من المحرم . . يومَ الواقعة الرهيبة ، والمهيبة . . يوم الآلام ، والمجد . . يوم الفاجعة ، والبطولة . . يوم المأْساة ، والعظمة . .

قبل أَن نبلغ هذا اليوم ، عَلينا أَن نُتابع الأَحداث التي سبقته ، وكانت جزءًا من صميمه .

إن ابن زياد في الكوفة يعمل ليلَ نهار في إعداد ضربته الآثمة المجرمة التي تَلْهثُ وراءَها رُوحه المظلمة المسعورة . ! !

وها هو ذاك ، يختار قواده للمعركة ، ويحشد المقاتلين . .

وحين يرى الناسَ يهربون من الانضمام لجيشه . يلجأُ إلى طريقته في معالجة العصيان ، فيجمع أَهل الكوفة أَمام قصره . ثم يأْتي بأَحد المضربين عن الاشتراك في جيشه فيأْمر بضرب عنقه ، ثم يلقى برأْسه ليتدحرج على الأَرض أَمام الناس الذين يفزعهم

المشهد ، فيقبلون على طاعته كارهين ومكرهين . . ! !

وتذكَّر ابن زياد أَن لديه جيشًا مُجهَّزا ، قِوامه أَربعة آلاف فارس ، كان قد أَعده تحت قيادة – عمر بن سعد – لمجابهة ثورة الدَّيْلم في أَرض همَذان . كما كان قد عيَّن – عمر – هذا واليا على الريّ . . فدعاه إليه وأَمره أَن يخرج بجيشه إلى كربلاء .

واعتذر – عمر بن سعد – فرارًا من أَن تتلوث نفسه ويداه بجريمة لا يطيقها ضَميرٌ به مُسْكة من رَشاد . . ! !

لكن الطاغية هدده بحرمانه من الولاية التي كان يطمح إليها وبعزله عن الجيش كله ، فضعفت مقاومة ابن سعد وغاب رُشده ، وقَبِل القيام بالمهمة البشعة ، وسار بجيشه إلى كربلاء . .

وكان مستشار ابن زياد لهذه الحملة الباغية ، مَسْخٌ شائهُ الخَلْق والخُلُق ، اسمه شِمْر بن ذي الجون .

رجل مدخول الإسلام ، انشقَّت عنه الأَرض بغتة في الأَيام الأُولى لفتنة الخوارج الذين ناصَبوا الإمام عليا العداء . فأَدْلَى معهم بدَلْوِه ، عاملاً لحساب نفسه الخبيثة ، أَو لحساب قوة خفية شِرِّيرة . .

ومن تلك الأَيام ، وهو يَكيد للإسلام ، ويُخرِّب في صفوفه

متخفيًا وراءَ ذلك القِناع المشبوه - قناع انتمائه للخوارج وتَسُلُّله بمَبادئهم إلى أَغراضه المنكرة وأَغراض القُوى التي يعمل لحسابها . !

ولقد نَفثَ في رُوع ابن زياد أَن هذه فرصة عمره ، إذا استطاع أَن يجهز على « الإمام الحسين » ويقدم رأْسه هدية لسيده يزيد . . ! ! !

* * *

نحن الآن في اليوم الثاني من المحرم . . وقد وافَى كربلاء - عمر بن سعد - في جيشه المكون من أَربعة آلاف فارس ، كما ذكرنا من قبل .

ولقد عسكر هناك على مقربة من معسكر « الإمام الحسين » الذي لا يزيد عن اثنين وسبعين من أَهله وأَنصاره .

وابتدأَ - عمر بن سعد - مهمته باختيار أَحد رجاله ، واسمه قرة ابن سفيان الحنظلي ، آمرًا إياه أَن يذهب إلى

« الحسين » رضي الله عنه ، فيسأَله : لماذا جاءَ ؟ ؟

وأَجابه « البطل » : -

« إن أَهل هذا المصر - يعني الكوفة - كتبوا إليَّ يذكرون أَنهم لا إمامَ لهم ، ويسأَلونني القدوم عليهم ،

فجئتُ إليهم . .

« وفي الطريق علمت نكوصَهم ، فأردت الرجوع ، فمنعني الحر بن يزيد ، وسار بي إلى هذا المكان » . .

وفرح – عمر بن سعد – بهذه الإجابة التي أَثلَجَتْ صدره إذ رأى فيها بادرةً لإمكان الوصول إلى حل سلمي ينجيه من خوض قتال يتمنى أَلاَّ يُطوَّق عُنقُه بأوزاره الثِّقال : ! !

فبادر بالكتابة إلى طاغية الكوفة ، الذي أَجابه على الفور بكتابك يقول فيه : (قد بلغني كتابك ، فاعرض على الحسين البيعة ليزيد ؛ فإذا بايع ومن معه فأخبرني وسيأتيك رأْيي) . . !

وعرض ابن سعد كتاب الطاغية على « الإمام الحسين » فكان جوابه :

« لا أُجيب ابن زياد إلى ذلك أَبدا . وإن يكن الموت فمرحبًا به » . . ! !

ويرسل عمر إلى أَميره بردّ « الحسين » فيكتب ابن زياد إليه : (امنع الحسين وأَصحابه الماء ، وحُل بينهم وبينه حتى لا يذوقوا منه حَسْوَة ، كما فعلوا بالتقيِّ عثمان بن عفان) . . ! !

يالَلْفُجَّارِ حين يتوقَّحون . . . ! !

تُرى هل سأل ابن زياد نفسه : أين كان يوم مُنِع « عثمان » الماء . . ؟ ؟

وأَين كان « الحسن والحسين وأَبوهما الإمام » . . ؟ !

أَما هو ، فكان جِيفةً تتنقل في مَراتع الإثم . .

وأَما « الإمام » . .

ومعذرةً إلى الله عن هذه المقابلة التي نلجأ إليها مضطرين . .

نقول : أَماّ « الإمام » فقد كان يحمل قربة الماءِ على كاهِله ، ويخوض بها بين الثوار مقتحمًا صفوفهم ، متحديًا حِصارهم . يذودهم ويذودونه . ويدفعهم ويدفعونه ، حتى سقطت عمامته من فوق رأْسه ، وحتى أَنفذ الماءَ إلى الخليفة الظمآن ! !

وأَما « الحسين وأَخوه الحسن » فقد كانا هناك بأَمر من أَبيهما ، يحرسان الخليفة ويذودان عنه عَوادِي الثوار.

ولقد جُرِحا ، وسال منهما الدم . . ورغم ما بذلاه من طاقة وجهد ؛ فإنهما لم ينجُوَا بعد استشهاد « عثمان » رضي الله عنه من لوم أَبيهما الشديد ، بل ولَطَمِهما بيديه ، وهو يصرخ فيهما « لماذا لم تموتا دونه » . . ؟ !

والآن ، يزعم هذا الغرّ الكذوب أَنه يثأَر لعثمان ، ولا يتورع

عن اتخاذ ذكراه وسيلة دنيئة يبرر بها وحشيته وحرمانَ أبناءَ الرسول في تلك الأرض القائظة من شربة ماء . . ! !

* * *

وعاد الحواريين « الإمام الحسين » وعمر بن سعد ، فاستمسك « الحسين » بموقفه في رفض مبايعة يزيد

يقول « عقبة بن سمعان » وهو أحد اثنين من أصحاب « الحسين » خلَصا من المعركة :

(صحبتُ « الحسين » من المدينة إلى مكة ، ومن مكة إلى العراق . .

« وسمعتُ جميع أحاديثه حتى يوم مقتله . .

« فوالله مازاد على أن قال لهم : دعوني أرجع إلى البلد الذي أقبلتُ منه ، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة ؛ حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس . . فلم يفعلوا) ! !

هو إذن ، لم يعرض كما تزعم بعض الروايات الدخيلة أن يذهبوا به إلى يزيد فيضع يده في يده . .

هذا تحريف واضح . . وإلاَّ ففيم إذن كان امتناعه عن أن يقول بلسانه : بايعتُ يزيد ، فينفَضُّ جيش ابن زياد ،

ويـنتهي كل شيئ . . ؟ !

لقد رفض الذهاب إلى الكوفة للقاءِ ابن زياد . .

ثم رفض طلب ابن زياد ، بأَن يُبايع يزيد . .

وها هو ذا الهول يحيط به وهو صامد ، يرفض الإذعان لعصابة البغي والإثم في عزَّة المتقين ، وإباءِ الأَكرمين . ! !

وضاق صدر ابن زياد بصمود البطل ، ففزع إلى مستشاره الزنيم شمر بن ذي الجون ، فأَشار عليه أَن يقسو على – عمر بن سعد – في خطابه ، ويأمره أَن يجيءَ بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة ، فإن أَبوا ، قاتلَهم حتى الموت . .

ويلمح شمر ، الممتلئ بقذارة النفس وخبث الطوية . . يلمح في ذلك الحوار الدائر بين « الحسين » وعمر بن سعد بادرة قد تُفضى إلى مهادنة أَو تفاهُم – الأَمر الذي لا يُشبع نَهمَه الخبيث إلى التقويض والتخريب اللذيْن يعمل لهما منذ زعم الإسلام وادَّعاه . . ! !

هناك هداه تفكيره الخبيث إلى أَن ينتقل بنفسه إلى أَرض القتال ، ليتولَّى إضرام النار ، إذا هي لم تُضرِم نفسها وليَصِلَ بالمعركة بعد شُبوبها إلى الغرض الذي يريد . ! !

ومكذا اقترح على ابن زياد أن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه عمر بن سعد ، ويبقى هناك عينا لابن زياد ورقيبًا ، ومقاتلا أيضًا . . .

واشترك مع أميره الطاغية في صياغة كتابه إلى ابن سعد ، ثم هَرْوَل به إلى كربلاء . .

(من عبد الله بن زياد أمير الكوفة والبصرة ، إلى عمر بن سعد . أما بعد ، فإني لم أبعثك إلى « الحسين » لتكُفَّ عنه ، ولا لتكون له عندي شفيعًا . .
ادْعُ « الحسين » إلى ما أمرتك ، فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين ، فابعث بهم إليَّ . وإن أبوا ، فازحَف عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم .
« وبعد أن يُقتل « الحسين » أوطِئْ الخيل صدره وظهره . .
« فإن مضيت لأمرنا ، جزيناك جزاءَ السامع المطيع . . وإن أبيت فاعتزل جندنا . . وخَلِّ بين شمر بن ذي الجوشن والعسكر والسلام) . . ! !

لم يكد – عمر بن سعد – يتلو خطاب أميره حتى أدرك ما وراءَه من كيد ابن ذي الجون ، فقال له :

(لقد أَفسدتَ علينا أَمرًا كنا نرجو صلاحه . . والله لن يستسلم الحسين أَبدا) . .

فأَجابه شمر : (امْضِ لأَمر أَميرك وقاتِلْ ، أَو فَخَلٍّ بيني وبين الجند) . .

ومرة أُخرى ، غُلب ابن سعد على دينه ، واستسلم لأَطماعه وهواه ، فرضي أَن يبقى قائدًا لحملة رجيمة ، وجيش ظلوم ! !

* * *

وضَحَتِ النوايا – إِذَن – أَمام « الحسين » . .
إِنهم يريدون إِذْلالَه ، أَو يريدون حياته . .
أَما المذلَّةُ ؛ فالمماتُ دونها ! !

وأَما حياته ، فليسَ هو أَوَّلَ مَن يجود بها في سبيل الحق من آل بيته العظيم ، ولن يكون آخر من يجود بالحياة منهم . .

الصعب في الأَمر ، أَنهم لا يريدون أَن يُقاتِلوا قتال الشرفاء ، بل ولا قتال الآدميين ! !

إِنهم لا يقنعون بمواجهته في أَربعة آلاف فارس ، بينما كل الذين معه من أَهل وصحب ، اثنان وسبعون لا غير . .

أَجل . . إِنهم لا يقنعون بتفوقهم العدَدِيِّ الساحق ،

فيحولُون في صَغارٍ ولؤم ، بينه وبين الماء ، وهم يرون مَن وراءَه في الخيام من سيدات ، وأطفال ، ومرضى ! !

لقد حاصروا الطريق إلى شريعة الماءِ بخمسمائة فارس . . وجَفَّت القِرَب التي كان أخوه « العباس بن علي » قد ملأها من قبلُ عُنوة ، وقبل أن يَضْرَى حولها الحصار .

ولقد يصبر « الحسين » ويصبر رجاله على الظمأ إلى حين ، ولكن الأطفال والنسوة الذين لم يعد يُطاق مشهدهم وهم يترنحون تحت وطأة الظمأ القاتل ! !

ماذا يصنع البطل لهم . . ؟ !

تُرى ، هل أَسِف على خروجه من مكة إلى حيث هو الآن . ؟

إن المؤمنين لا يأسفون على خطَر ، ولا يَجزعون من قَدَر . .

ولعلَّه قد أَسِف لشيْ واحد ، هو أنه لم يستمع لنصح ابن عمه « عبدالله بن عباس » ألاَّ يصحب معه الحرائر والأبناء .

ومع هذا ، فللَّه الأمر من قبل ومِن بعد ! !

ولسوف يصبر على واجبه ، ويُعانق مصيره بما عُرف عن بيته الكريم من رِضًا وثبات وولاءٍ . .

وهكذا وقف ابن الرسول الأكرم . . وقف ابن « علي »

البطل ، و « فاطمة » الزهراء الموقفَ اللائق به ، والمقدورَ له . .

كان يستطيع أَن يُخادعهم ، والحربُ خُدعة . .

بل كان من حقه لوشاءَ أَن يبايع بلسانه ، حتى إذا عاد بأَهله إلى مكة واطمأَن على سلامتهم ، خلع البيعة وأَلقى بها إلى التراب ، وله من دينه في مثل ذلك رُخصةٌ سجلها القرآن في بعض آياته فقال :

(. . إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ، وقَلْبه مُطْمئِنٌّ بالإِيمان)

لكنه سليل بيت ، ليسَ من طرازه سواه . وابنُ رجالٍ لا يركَبون الرُّخص ، بل يعانقون العزائم ! ! . . .

إن عاقبة المعركة لَواضحة مقروءَة . . فاثنان وسبعون ، لن يَهزِموا . . بل يُفلِتُوا من أَربعة آلاف فارس ضربوا حول القِلَّة الصامدة أَبشع حصار . . . إنه لا أَمل في النصر .

ولكن ، أيُّ نصر هذا الذي لا أَمَل فيه . . ؟ النصرُ العسكري في معركة غير متكافئة . . ؟ ؟

ليكن ذلك ، فأَين النصر الآخر ، الأَعظمْ ، والأَكرمُ ، والأَبقى . . ؟

النصر الذي يتحقق ويتمثل في بذل الحياة من أَجل الواجب . .

وفي إعطاءِ القدوة بِرَوْعةِ الثبات . . وفي إضاءَة ضمير الحياة بجلال التضحية . . ؟ ! !

هذا النصر ، هل فقد « الحسين » الأَمل فيه ؟ ؟ لا . . بل لقد تجسَّدت فيه كل آماله وآمال الذين معه ، ومن ثم تشبَّثَ وتشبَّثوا به في وَلَهٍ عظيم ، وراح يقاتل ويقاتلون في سبيله على نحوٍ يجلُّ عن النظير . . ! !

وإننا لَنظلم يوم كربَلاء ظلمًا كبيرًا ، حين نظنه مأْساة لاغير . . وفاجعة لا أَكثر . . ونتخذه مناسبة لاجترار الأَحزان والآلام . .

لا . . ثم لا ، يارجال ! !

إنه مأْساة وفاجعة ، إذا نظرنا إلى الشكل الخارجي للمعركة ، فرأَينا السَّفلة الأَدعياء ينتصرون . . ورأَينا الوحشية المجرمة تفتك بأَبناءِ الرسول .

لكنَّ يوم كربلاءَ ليس مأْساةً ولا فاجعة ، إذا نفذنا ببصائرنا إلى جوهره النضير ، فرأَينا عظَمة الثبات ، وروعةَ البطولة ، وعزَّة الإيمان ، وجلالَ التضحية ، في مهرجانٍ للحق ، هيهات أَن يكون له نظير . . ! !

وستكون لنا إن شاءَ الله وقفة مع هذا المعنى الجليل الخالد فِي الفصل القادم من الكتاب .

أَما الآن ، فإِن علينا أَن نسارِع إِلى مكان المعركة الأَليمة والعظيمة ؛ فإِن ساعاتِها الحاسمةَ تقترب . . ! !

* * *

نحن الآن مع اليوم التاسع من المحرم ، وقد ولىً نهاره ودَلِيف ليلٌ جديد ! !

ولقد أَخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب . .

ورأى الحسين تحرُكاتِهم ، وتذكَّر واجبًا لا بد من أَدائه قبل أَن يبدأَ القتال .

هنالك أَرسل إِلى قائدهم – عمر بن سعد – طالبا إِرجاءَ القتال إِلى غد . . وأَجابه ابن سعد إِلى مَا طلب . . ولعلَّه ظن أَن وراءَ هذه الرغبة في الإِرجاءِ عزما على التسليم وعلى بيعة يزيد ! !

تُرى ، لماذا طلب « البطل » إِرجاءَ القتال . . ؟ ؟

هل لِيُدير خواطره من جديد حول موقفه ؟

هل اقترب اليأس من عزمه ، فأَراد أَن يفكر مع نفسه في

البحث عن مَخرج يُوَقِّيه وأَصحابه ما ينتظرهم من هول . . ؟

كلا . . لم يكن لشيءٍ كهذا أي وجود في رُوع البطل ، ولا في تفكيره .

فهو قد وطَّنَ نفسه على الموت من أُولىَ ساعات المؤامرة التي بدأَت مع طلائع جيش ابن زياد . .

وهو لا يعرف خِيارا ، بين أَمرين ، ثانيهما خذلان الحق وبيعة يزيد ! !

إن أَمامه طريقًا واحدًا ، ليس لمثله أَن يسلك في هذه القضية سواه . . ذلكم هو سبيل التضحية بالحياة ، ولو أَمْكَنَ ؛ فَبِأَلفِ حياة . . ! !

إنما طلب إرجاءَ القتال إلى الغد ؛ لأَنه عظيم جدُّ عظيم . . ليس لعظمة نفسه مُنتهَى . وليس لِنُبْلِ رُوحِهِ حدود ! !

انظروا . . .

عندما استبانت له نتيجة المعركة ، أَراد أَن يدفع حياته وحدها زُلْفى لها وقُربانا . . ! !

لم يشأْ أَن يدفع لسيوف البغي حياة أَنصارِه الخمسين ، ومعهم الأَشبال والرجال من أَهله وأَبنائه ، بعد أَن تغير الموقف بالنسبة

لهم . .

لقد خرجوا معه على حساب أَن الكوفة في انتظارهم ، ليبدأَوا منها وبها مقاومة مشروعة ، يدْحَضُون بها ضلال حاكم الشام ، وَيَدْرَأُون بها عن الإسلام خُبْثَ بني أُمية . .

لكنهم فوجئوا بالكوفة تنتظرهم بوجه آخر كالحٍ وعَبوس . .

فرُسُل « الحسن » صُرِعوا ، واستُشهدوا . .

والألوف التي أَعطت بيعتها لمسلم بن عقيل ، تبدَّدتْ واختفت كالجرذانِ . . ! !

وبدلاً من أَن يجد البطل في استقباله كتائب الحق من شيعته وأَنصاره ، وجد عصابات البغي تنتظره بالغدروبالمنايا . ! !

إذن ، الموقف قد تغير بالنسبة للذين معه من أَهل وأَنصار . .

وإن لم يكن قد تغير بالنسبة له ، ولما وطَّن عليه إرادته ، وعزمه ، وضميره .

وهكذا طلب إرجاءَ القتال ، ليجعل أَهله وأَصحابه في حِلٍّ من كل الْتزاماتهم تِجاهَهَ . ! !

وهكذا جمعهم في الليل ، وقال لهم بعد أَن حَمِدَ الله وأَثنىَ عليه : —

(. . أَما بعد ، فإني لا أَعرف أَصحابا خيرا من أَصحابي . . ولا أَهلَ بيت أَبرَّ ، وأَوصلَ من أَهل بيتي . . فجزاكم الله خيرا ؛ فقد بَرَرْتُم وأَعَنْتُم . .

« وإنكم لتعلمون أَن القوم لا يريدون غيري . . وإن يومي معهم غَد . . ! !

« وإني قد أَذِنت لكم جميعًا ، فانطلقوا في غير حرج . ليس عليكم مني ذِمام . .

« هذا هو الليل قد غشِيَكم ، فانطلقوا في سواده قبل أَن يطلع النهار ، وانْجُوا بأَنفسكم) . .

من لمثل هذا الموقف المعجز ، مِثلُ ابن « عَلي » ، وحفيدِ « مُحَمَّد » ؟ ؟ ! !

مَن ، يا رجال . . . ! ! ؟ ؟

وهو لم يَقُلها لأَهله وصحبه اسِتدْرارًا لعطفهم ؛ فماذا يُغني عطفهم في هذا المقام ؟ ؟

إنما كان يعني تمامًا كل كلمة قالها . . كان يعني تمامًا أَلاَّ يُحمّلَهم مسئولية الموقف الذي اختاره ، والهولَ الذي قرر أَن يُواجهه في استبسال . ! !

تُرى ، هل يتقبل الأَهل والأَنصار رأَيه هذا ، وتوجيهه .

كلاّ . .

ولماذا . . . ؟ ؟

لأَن العظَمة ، ولأَن البطولة كانتا في ذلك اليوم على موعدٍ مع هؤُلاءِ الأَبرار جميعًا فتيانًا وكُهولا ؛ لتحقِّقَا بهم أَروع مشاهدهما ، وأَسمى أَمجادهما . . ! ! !

من أَجل ذلك ، لم يكد البطل يفرغ من كلماته ، حتى تحولوا جميعًا إلى أُسود تزأَرُ للكلمات ، وتَشْرَقُ بالدموع ! !

صاح أَخوه لأَبيه « العباس بن علي » : —

(مَعاذَ الله والشهر الحرام . .

وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم ؟ ؟

« نقول : تركْنا سيدَنا وابنَ سيدنا غرَضًا للنبال ، ودريئةً للرماح ، وحَرزًا للسباع . . وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟ ؟ ! !

« معاذَ الله . . معاذَ الله . .

« بل نحيا بحياتك . .

« ونموت معك » . . ! !

وصاح بمثل ذلك « بَنو عقيل » و « بَنُو جعفر » وتقدم ابنه « علي بن الحسين » – فتىً لم تُجاوز سِنُّه التاسعة عشر . . ! !

وسأَل أباه :

(أَلَسْنَا على الحق يا أَباه ؟ ؟

قال الحسين :

(بلىَ ، والذي أَنفُسُنا بيده . .

فصاح فَتَاه العظيم :

(إذن ، والله لا نُبالي) . . ! !

ومن أَصحابه وأَنصاره ، قام « زهير بن القَيْن » يَزْأَرُ ويُنادِي :

(والله ، لوددْتُ أَن أُقتَلَ ثم أُبْعَث . . ثم أُقتل ثم أُبْعَث . . هكذا أَلف مرة ، أَكون فيها رِدْءًا عن حياتك وحياة هؤُلاءِ الفتيان من آل بيتك) . . ! !

وتلاه « مسلم بن عَوْسَجة الأَسدي » .

(أَنحن نتخلَّى عنك ، ولم نَعْذِرْ إلى الله في أَداءِ حقك ؟ ؟

« أَمَا والله لا أُفارقك حتى أَكسر في صدورهم رُمحي ، وأَضربهم بسيفي ما ثبَت قائِمُه بيدي » . . ! !

« ولو لم يكن لي سلاح ، لَقذفتُهم بالحجارة دُونك حتى أَموت معك » ! !

وقام آخَر . . وآخر . . وآخر . .

هبُّوا جميعًا يُعطون أَمجد بيعة في تاريخ التضحية والفداء . بيعة على موت مُحقق . . فليس هناك لما دُون الموت أَدنى احتمال !

أَلم أَقل لكم : إن العظمة والبطولة أَرادتا أَن تجعلا من ذلك اليوم مهرجانًا وعيدًا . . ؟ ؟ ! !

لقد ارتفع الأَبطال جميعًا إلى مستوى الموقف المجيد ، الذي سيجعلون منه درسًا لأَجيال الدنيا كلها في الولاءِ الباهر للحق ، وفي التضحية الشاهقة من أَجله . . وها هم أُولاَءِ ، يعودون لمضاربهم وخيامهم . . يتهيأُون للقاءِ الغد بالصلاة والابتهال وبِشحْذِ سيوفِهم ، وبَرْي سهامهم ، وصَقْلِ رِماحهم ! !

ومِن طريف ما حدث في ليلتهم تلك ، أَن « نافع بن هلال البُجَليّ » رضي الله عنه وعنهم أَجمعين ، قضى شطْرَ ليله في كتابة اسمه على سِهام نَبْلِه ، إمعانًا في طلب المثوبة والأَجر . . وإِمعانًا في السخرية من الخطَر . . وإِمعانًا في الترحيب بالموت . . !

* * *

وطلع الصباح . . . .

وأَقبل اليوم المشهود . . العاشر من المحرم ! !

بدأَ البطل يومه المجيد بصلاة الفجر . أَمَّ فيها أَهله وصحبه .

وطلعت الشمس على سبعين ، أَو اثنين وسبعين بطلا في جانب . .

وأَربعة آلاف ذئب في الجانب الآخر . .

ووقف « الحسين » يُعَبِّئُ رجاله . . فجعل « زهير بن القين » على المَيْمَنة . . و « حبيب بن مظهر » على المَيْسَرة . . وأَعطى الراية أَخاه « العباس بن علي » . . وتقدم شباب آل البيت ، ليأَخذوا مكانهم في الصف الأَول فدفعهم عنه الأَنصار قائلين :

(معاذَ الله أَن تموتوا ، ونحن أَحياء ، نشهد مصارعكم .

« بل نحن أَولا ، ثم تجيئون على الأَثر) . . ! !

وهكذا وقفوا في الصف الثاني وراءَ القائد والأَنصار وفي الجانب الآخر ، وقف – عمر بن سعد – يُعَبِّئُ جيشه ، وينظم ميمنته ومَيْسَرته

يا ويحهم . . أَلاَ يَخجلون ؟ ؟ ! !

أَربعةُ آلاف ، لاثنين وسبعين . ؟ ؟ ! !

وفي سبيل ماذا . . ؟ ؟

في سبيل باطل يَرونَه رَأْىَ العين ، وفي سبيل أُكذوبة صغيرة اسمها – يزيد – ، وجريمة منكرة ، اسمها – ابن زياد – . ؟ !

ومِن عَجَبٍ أَنهم كما يحدثنا التاريخ ، خرجوا لجريمتهم تلك بعد أَن صلىَّ بهم قائدهم صلاة الصبح . . ! ! أَصحيح أَنهم صَلوُّا ، وقرأُوا في آخر صلاتهم :

« اللهم صَلِّ على محمد ، وعلى آل محمد . . ؟ ! »

إِذن مابالُهم يَنفَتِلون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم الآئمة آلَ محمد . . ؟ ! لَكَمْ كان « نافع بن هلال البُجَليّ » صادقًا وهو يقول لابن ذي الجون الشَّقيّ : –

(والله لو كنتَ من المسلمين ؛ لَعظُمَ عليك أَن تلقَى الله بدمائنا . .

« فالحمد لله الذي جعل منايَانَا على أَيدي شِرَارِ خلقه) . . ! ! !

أَجل ، الحمد لله . . فتلك مزية ادَّخرها القدر لمحسين وأَصحابه – أَن يجئ مصرعهم المقدر على أَيدي شرار لا يُقِيم الله لهم وزنًا في الدنيا ولا في الآخرة . .

فلَكَمْ يَشُقُّ على الأنفس المؤمنة أن تجيء منايها على أيدي قومٍ خِيار ! !

أَتذكرون كلمات أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » عندما أَفاق من غَشْيَةِ الطعناتِ الغادرة التي وجهها إليه وهو يصلي ، أبو لُؤلؤة المجوسي . . ؟

لقد تهلَّل وجه « عمر » حين عرف هَوِيَّة قاتله . . وحَمِد الله كثيرا ، إذ لم تجئه الضربة من بَرٍّ تَقيّ . . وجاءَت من ذلك المجوسيّ الزنيم . ! !

ومن الحظوظ الوافية للحسين وأَصحابه ، أن خُصومهم في تلك المعركة كانوا اشرارًا . . أَشرارًا من الرأْس إلى القاع . . ولم يكن فيهم خيِّرٌ واحد ، ولا بَرٌّ واحد يمكن أن يُشكل وجوده بينهم أَمارة احتجاج أَو علامة استفهام . . ؟ ! !

* * *

أَوشَك القتال أَن يبدأَ . .

ولكن قبل أن تنقذف أَول سهامه ، وقع حادث عجيب . .

أَتذكرون « الحُرّ بن يزيد التميمي » قائد الطليعة التي أَرسلها ابن زياد من الكوفة . . والذي التقى بركب « الحسين » واضطره

للنزول في كربلاء . ؟ ؟

إنه لم يكد يرى القتال على وَشْك البَدْء ، حتى أَحسَّ فداحة الجريمة التي ستُلَوِّثه ، وبَشاعةَ الوزر الذي سَيحمله ، وظلامَ المصير الذي سيكون له عند الله ، ، فخرج بجواده من صفوف فرسانه ، واقترب من قائد الجيش – عمر بن سعد – وصاح به :

– أَمُقَاتلٌ أَنت ذلك الرجل . . ؟

قال ابن سعد :

– نعم والله ، قتالاً أَيْسَرُهُ أَن تُبتَر الأَيدي ، وتُطوَّح الرؤُوس ! !

قال الحُرّ :

– أَوَلَسْتُم تارِكِيه يرجع إلى حيث أَتى ، أَو يضرب كما قال في الأَرض العريضة . . ؟

قال ابن سعد :

– لو كان الأَمر بيدي لفعلت . . ولكن ابن زياد يأْبى ذلك . .

فصاح « الحُرّ » وهو يدفع جواده نحو صفوفْ الحسين (إِذَنْ ، فقاتِلْني معه) . . ! !

ونزل من فوق جواده ، يعانق « الحسين » ودموعه تتفجَّر من مآقيه ، ويقول له : –

« قد كان مِني بالأَمس ما كان . وقد استبانَ لي حقك ،
فجئتك أُفتديك بنفسي .

« أفترى في ذلك توبةً لي مما صنعت » . . ؟ ؟

وأَجابه البطل ، وهو يضمَّه إلى صدره النبيل :

(إنها خير توبة ، فأَبْشِرْ . . فأَنت الحرُّ في الدنيا . .
وأَنت الحر في الآخرة إن شاءَ الله) . . ! !

وكما صنع « الحرّ بن يزيد » صنع بطل آخر ، هو « يزيد الكندي » . . لقد غادر مكانه في جيش ابن زياد ، وبصَق عليه ، ثم انطلق يَعْدُو بجواده إلى جبهة « الحسين » العظيم . . ! !

* * *

والآن . .

أَتبصرون ذلك السهم الذي انطلق يُمزِّق الهواء في اتجاه « الحسين » وأَصحابه ؟ ؟

إنه السهم الذي قذفه – عمر بن سعد – قائد جيش ابن زياد معلنًا بدء القتال . .

وتلاه على الأَثر ، بُروز صف من رجال ابن سعد يطلبون المبارزة .

ومن صفوف الابطال خرج إليهم أكفاؤهم الأشِدَّاءْ . .

هذا « عبدالله بن عمر الكلبي » . . مؤمن من الكوفة لم يكد يعلم باحتجاز « الحسين » عند كربلاءَ ، حتى اصطحب زوجته معه وشدَّ إليه الرِّحال

ها هوذا يُوَفِّي لله بيعَه . .

وها هوذا ، يخرج إلى مُبارِزه ، فيصرعه من فوره

وكان استهلالاً باهرًا ، أطار صواب الآخرين ، فهجم عليه الشياطين المَرَقَة حيث ضربه أحدهم بسيفه . فطارت أصابع كفِّه في الهواء . لكنه انثنى على ضاربه فصرعه في لحظة . .

وتكالبَ عليه آخرون ، تنكَّروا حتى لِشَرفِ المبارزة وقواعدها ، لا سيَّما حين رأوا أن جميع مُبارِزيهم صُرِعوا بأيدي الذين خرجوا إليهم من أَنصار « الحسين » . .

ولم يتركوا الرجل إلا عندما أبصروا فريقًا من أصحابه يقتربون منهم بسيوفهم المشرَعَة . . عندئذ ولَّوْا عنه ، وهو مُثْخَنٌ بجراحه .

واشرأَبَّت زوجته من بعيد ، فبَصُرَت به . وانطلقت تُهرول إليه حاملةً بِيُمناها حربة طويلة . حتى إذا بلَغته راحت تحتضنه

بين ذراعيها لينهض قائماً وهي تقول له :

(فِداكَ أَبي وأُمي . .
قاتِلْ دون الطَّيِّبين من ذُرية محمد) ! !

لكنه يصيح بها ، ويضرع إليها كي تعود إلى خِبائها ، فإذا هي تُلَعْلِعُ بصوتها الواثق ،

(لا ، لن أَعود . . ولن أَدعَك تذهب إلى الفردوس وحدك) . . ! ! !

لكنه يزحف بجسده المُثْخَن ، ويدفعها أَمامه نحو الخيام . فتستعصي عليه ، وتستْميت دون الرجوع

ويلمح « الحسين » المشهد من بعيد فيناديها :

(جُزِيتُم عن أَهل بيتي خيرا . .
« ارجعي يرحمك الله ، فليس عليكُنَّ قتال)

وآنئذ لا غير ، تمتثل وتطيع ، فإنها لا تستطيع لأَمر ابن الرسول عصيانًا ! !

ويستأْنف « عبدالله عمر الكلبي » زحفه فوق أَرضٍ جاشَتْ بالصراع ، ضاربًا بسيفه ذات اليمين وذات اليسار ، حتى غاضَتْ حياته تحت وطأَة الهول الذي كان جسده قد تلقَّاه . ! !

ومرة أُخرى ، تندفع إلى أَرض القتال زوجته التي صممَّت على أَلا يذهب قبلها . وأَلا يذهب دونها إلى الجنة . وراحت تبحث بين جثث الشهداءِ حتى وجدته ، فجلست بجواره تُسَجِّيه بحنانها ، وتضمُّه بكيانها ، وتُقبِّل الجراح التي رصَّعَت جسده وهي تصيح : « هنيئًا لكَ الجنَّة » . . ! !

ثم رَبضَتْ إلى جواره ، ويدها على مِقبض سيفه ، لتحرس جثمانه من الوحوش الذين كانوا يعودون إلى الشهداءِ ، ليحتزُّوا رؤُوسهم ! !

لكن الشقي الزنيم – شمر بن ذي الجوْن – أَبصرها ، فأَمر واحدًا من شياطينه ، غافلَها من الخلْف وهشَّم رأَسها ، وهكذا لم تحرم من صحبة زوجها إلى الفردوس الأَعلى . . ! !

* * *

الْتحمت الجبهتان التحامًا رهيبًا . ورأَى جنود زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغم كثرتهم الهائلة ، فجُنَّ جنونُهم ، وهجَم فُرسانهم في ضراوة . .

وبرَز لهم فرسان « الحسين » الذين لم يكونوا أَكثر من اثنين وثلاثين فارسًا . فدمَّروا هجومهم تدميرًا . وجاوزوا الدفاع إلى

الهجوم في سرعة ماحِقة ، وأحاطوا بفرسان ابن زياد ، ثم مرَقوا داخل صفوفهم يُطوِّحون برؤوسهم كالذباب ! !

وسُقِط في يد قائدهم - عروة بن قيس - فنادى - عمر بن سعد - من فوق صهوة جواده ، كي يُدركه بالرماة ! !

وأمر - ابنُ سعد - جيشه فتقدم بأَجمعه ، يتقدمه خمسائة من الرُّماة . .

وكبَّر « الحسين » تكبيرة هزَّت الأَرض ونادت زَلْزالَها . وانقذفَ يضرب بسيفه ، فكأَنه قَدَر ، لارَادَّ لأَمره . . ولا مَهرَب من حُكْمِه ! !

كان يَشدُّ كالليث على غريمٍ فيصرعه . . ثم يبصر آخرَ في طريقه بسيفه الغادر إلى بعض أَصحابه ؛ فينثني إليه كالصقر ويُرْدِيه ! !

وحَلَّ رُوحُه الغلاَّب في أَفئدة أَصحابه ، فاشتعل حماسُهم ، واتَّقَد مَضاؤُهم وامتلأَت أَفئدتهم المؤْمنة عزمًا وشوقًا ، وراحوا يَضربون ويُقاتلون ، في استبسال عظيم

كانوا كلما قَلَّ عددُهم بوقوع الشهداءِ منهم ، ازدادوا إقدامًا وقوة . . لكأَنما كانت أَرواح شهدائهم تَستأنف بعد انطلاقها من أَجسادها ، نضالها وقتالها . . ! ! !

لم يكن أَصحاب « الحسين » يتعَجَّلون النصر ؛ فما أَبعد النصر عن قوم يقاتلون في مثل ظروفهم وبمثل عددهم .

إنما كانوا يتعجَّلون الجنة ؛ إذْ لم يكن لديهم ريب في أَنها المُنتهى والمصير . . ! !

وركَّز رُماة الأَعداءِ ضرباتهم على الجياد التي يمتطيها فُرسان « الحسين » ، فعقَروها جميعاً . .

وهبط الفرسان إلى الأَرض ليقاتلوا مع إخوانهم .

كان كل بطل من أَصحاب « الحسين » يتكاثَرُ عليه عشرات من جيش ابن زياد .

وهذه وحدها ، تُرينا كيف كانت ضراوة القتال وعَظمة الاستشهاد ! !

ورغم ما كان لجيش الباطل من تفَوُّق ، فقد كان الفزع من نصيبه وحده .

وليس هناك ما يصور هذه الحقيقة مثل إقدامهم على حَرْق المضارب والخيام التي كانت لأَهل الحسين وأَنصاره

لقد أَحرقوها ؛ ليشغلوا بإطفاءِ نارها المندلعة تلك القِلَّة الصامدة لقتالهم والمطوِّحة برؤُوسهم . ! !

واشتعلت الحرائق عالية ، فنادى « الحسين » في ثَبات عجيب :

(لا بأس . . اجعلوا الحريق وراءَ ظهوركم ؛ فلا يستطيعوا اجتياز النار إليكم) ! !

ونجا فُسطاط « الحسين » من الحريق . .

وفي خِضَمٍّ هذا الهول الذي شكَّله القتال الضاري الوبيل ، وقف « البطل » يُقلِّبُ وجهه في السماءِ ! !

لقد كان ينتظر مَقْدِم عزيز لم يُخلِف قط موعده معه – ذلكم هو الصلاة . . ! !

أَجَل . . لقد انتصف النهار ، وجاءَ ميقات الظهر ، وموعد صلاته .

وللصلاة في ميدان القتال طريقة خاصَّة . . وهكذا نادى « الحسين » لصلاة الظهر – صلاة حرب وقتال !

هل رأى الناس شيئًا كهذا ، في جلالِه ، وجمالِه ، وعظَمتِه . . ؟

حتى والموت يَنُوشُه ويَنُوش أَصحابه من كل جانب ، لا يغفل عن واجب ربه ، ولا عن فرائض دينه ! !

ويَفرغون من صلاتهم ، ليواصلوا جهادهم ، وقد بدأ النصف الثاني من النهار . .

أيُّ إعجاز كان هذا الذي حدث . . ؟ ؟

وكيف صمد اثنان وسبعون طيلة هذا الوقت لأَربعة آلاف فارس ، ورَامٍ . . وكيف ستظلُّ بَقِيَّتهم صامدة حتى آخر النهار . . ؟ ؟

أَوَ كُلَّ هذا الثبات ، يَهَبُه الحق أَتباعه وأَشْياعَه . . ؟ !

أَجل ، وأَكثر من هذا يمنح الحقُّ ويُعطي . .

* * *

لقد أَحاط الباقُون من أَصحاب « الحسين » به يقاتلون من حوله ويَذودون عنه . . وكل أَمانِيِّهم أَن تواتيهم مناياهم وهم بين يديه ، أَو عند قدميه . . ! !

* فهذا « حَنْظَلَة بن سعد البشامي » ينادي أَعداءَ الحق :

(إني أَخافُ عليكم يومَ التَّناد . . فإياكم وقتلَ « الحسين » ؛ فقد خابَ مَن افترى) . .

ثم يثبت بين يديه كأَنه جبَل ؛ لا تُزحزحه عن مكانه عشرات السيوف والرماح التي اتخذته هدفًا . . ويظل يقاتل حتى يقع

شهيدًا . . ! !

* وهذا « سيف بن الحارس وأخوه مالك » يقتربان من البطل ، ويعانقانه ، ثم يقولان له :

(مَوْعِدُنا الجنَّة) ! !

ويقاتلان معه ومن حوله حتى تدركهما الشهادة ! !

* وهذا « عبدالله بن عروة وأخوه عبد الرحمن » يخوضان في صفوف الأعداءِ ويُصْلِيانهم سعيرا . .

ويُثقَل جسدَاهُما بالطعن وبالضرب والجِراح ، فيقعان على الأَرض خائرة قُواهما . . ثم لا تكاد أَعينهم المجهدة تقع على البطل يقاتل وحده عشرات من الاعداءِ القُساة حتى تنتفض فيهما من جديد عافِيَةُ الأُسود ، ويتضَّرم بأَسهما . . وينهضان بين يديه في قتال مريرٍ حتى يقعَ أَجرُهُما على الله شهيدين عظيمين ! !

* وهذا « شَوْذَب » و « عباس بن أَبي شبيب » و « نافع بن هلال البجلي » و « سويد بن أَبي المطاع » وعشرات من إخوانهم المباركين ، راحوا يقاتلون في جسارة وغبطة . . كلما سقط أَحدهم جريحًا نهض فوق جراحه ، وسبح فوق دمائه حتى يعود فيقاتل . . ويقاتل في عزم شامخ وثبات مَكِين ، حتى لحقوا

جميعًا بإخوانهم الذين سبقوهم أَوَّل النهار -« زهير بن القين » و« عبدالله بن عمر الكلبي » و« الحرّ بن يزيد » و« يزيد الكندي »

أولئك الأَبطال الذين قاتل الواحدُ منهم وكأَنَّه جيش وحده . . والذين ابْلَوْا في المعركة بلاءً يتعاظَمُ كل وصف وكل إطراءِ . . ! !

* * *

وتقدم آلُ بيت الحسين . .

تقدم أَبناء الرسول نحو مَصايرهم العظيمة . .

لم يَعُد الذي يُضْنيهم ، الظمأ إلى الماءِ الذي حرمهم منه المجرمون .

بل الظمأ إلى الشهادة . . والشوق إلى الجنة ! ! لقد كانوا في لحظاتهم المجيدة تلك ، يشَمُّون عبير جدِّهم الرسول . . وجدَّتهم خديجة . . وعبير حمزة . . وجعفر . . وعلي . . وفاطمة فيدركون أَنهم صاروا من الجنة على قُربِ ذراع ، فينطلقون نحوها في هُيَام . . ! !

وكان أَولهم انطلاقًا « علي بن الحسين » . .

فتىً لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره ! !

انظروا ! !

ها هو ذا – في نَضْرِة شبابه . . ورَيْعان إهابِه . . في روعة بأسِه . . وشَرَفِ نَفْسِه . . يتوسَّط حراب الأَعداءِ وسيوفهم ، وهو يُنشِد :

أنا عليٌّ بنُ الحسين بن علي
نحنُ وربِّ البيت ، أَوْلَى بالنبيّ
تالله ، لا يَحكُم فينا ابنُ الدَّعيّ

تماما ، كما كان يصنع من قبل جَدُّه « الإمام علي » حين كان يقتحم المعارك في عُنفوانه اللَّجِب ، وهو يزأَر :

أنا الذي سمَّتني أُمي حَيْدَره
كَلَيْثِ غابات ، كريهِ المنظَرة
أُوفيهمُوا بالصّاع كيل السَّندَرَة

ها هوذا ، ابن التاسعة عشرة ، يعيد إلى الحياة مرة أُخرى بطولات جده العظيم .

ذُرِّيةً بعضُها من بعض ! !

ويمضي ، يَضرب ويُضرَب . . حتى تصيبه طعنة رُمح ؛ فيقع على الأَرض ، وقبل أَن يتحامل على جراحه لينهض من جديد كانت عشرات السيوف الباغية قد مزَّقت جسده الغَضَّ

الشريف ! !

ويراه الحسين . . – مَجَّدَ الله الحسين – فيسرع نحوه . . ويسرع معه شباب بني هاشم . ! !

وفي رباطة جَأش تُذهِلُ كلَّ حَيّ ، حمل البطلُ ابنه الحبيب ، ثم سجَّاه على ذراعي واحد من بني عمومته ، وأَمره أَن يذهب به إلى فُسطاطه .

ولا تكاد الطاهرة البَتُول « زينب بنت علي » رضي الله عنها وأَرضاها . . لا تكاد تبصر جثمان ابن أَخيها حتى تعلُوَ زفراتُ أَساها . .

أَهذا الذي كان من دقائق معدودة . يملأُ الأَعيُنَ شبابُه ، وبهاؤه ، وسَناؤُه . . ؟ ؟

هنالك انكبَّتْ على الأَشْلاءِ الطاهرة الناضرة ، تُضمِّخها بدموعها وشَجَنِها . .

وأَثَّر في البطل مشهد أُخته ، فسار إليها يسأَلها الصبر . . ويقودها في رفق إلى خِبائها .

وعاد هو إلى ساحة القتال . .

لم يكن هناك على أَرض المعركة سوى أَهل بيته . .

أَما أَصحابه وأَنصاره ، فقد رحلوا جميعًا شهداء مُمجَّدين . !

ولقد استفتح آل البيت بفتاهم العظيم « علي بن الحسين » ، ومن بعده تقدموا جميعًا كالصقور الكواسِر . .

* ها هم أُولاءِ إِخوته لأَبيه :

عبدالله بن علي بن أَبي طالب . . وجعفر . . وعثمان . . ومحمد الأَصغر . . وأَبو بكر . . والعَباس . . يقذفون بأَنفسهم وسط الهول ، وأَخوهم العباس يهتف فيهم قائلا

(تقدموا ؛ حتى أُراكم قد نَصَحْتُم لله ولرسوله)

فيتقدمون إلى قلب الجيش المسعور بسيوفه العاوية ، ورماحه الباغية .

وكلما لمحوا خطرا يقترب من أَخيهم البطل « الحسين » تلقوه بأَجسادهم حتى سقطوا جميعًا صرعى . . بل قولوا : صعدوا جميعًا شهداء . . ! !

وعلى ثَراها تمددَّت أَجسادهم الكريمة يسبقها جثمان « العباس بن علي » الذي كان لبهاءِ طلعته ، وتألُّق شخصيته ، يُلَقَّب بـ « قَمر قريش » ! !

* * *

* وتقدم أَبناءُ « الحسين » وأَبناءُ « الحسن » :

أَبو البكر بن الحسين . . وعبدالله بن الحسين . . والقاسم ابن الحسَن . .

* كما تقدم أَبناءُ جعفر بن علي بن أَبي طالب عَوْن . . ومحمد . . وعبدالله . .

* وأَبناءُ « عَقيل بن أَبي طالب »

عبدالله الأَكبر . . وعبدالله الأَصغر . . وجعفر . .

* وأَبناءُ « مسلم بن عقيل » الذي قتله ابن زياد بالكوفة : محمد . . وعبدالله . .

* كما تقدم محمد بن أَبي سعيد بن عقيل . .

تقدموا جميعًا في بطولة تتحدَّى نفسَها ! !

واندفع أَصغرهم سِنًّا - القاسم بن الحسَن - يهزُّ سيفه في الهواءِ الساخِن ، ثم يهوِي به فوق الأَعناق الضالَّة الظالمة ، حتى نالَتْه سيوفهم فهوَى كالنجم ، ينادي : يا عمَّاه . . ! !

ونَسِيَ « الحسين » ما حوله من هول ، وانطلق كالصَّقْر صوْبَ قاتِل ابن أَخيه ، حيث شدَّ عليه شدَّة الليث وضربه بسيفه ، فبتَر يَده الشقيَّة ثم طرحَه أَرضًا ، حيث داسَتْه خيل جيش ابن

زياد ، فهلك تحت حوافِرها . .

وانثنى « البطل » نحو ابن أَخيه يَضُمَّه ، ويَشَمُّه ، ويتملىً في جَسده المُثْخَنِ ، رَوْنَقَ الزهور . . ! !

ولأول مرة سالَت عبَراتُ الأَسد ، وقال يخاطب الجثمان المسَجَّى بالمجد .

(عَزيزٌ واللهِ علىَ عَمِّك أَن تدعُوَهُ فلا يجيبُك
أَو يُجيبك فلا ينفعك في يومٍ - كَثُرَ وَاتِرُه . .وقَلَّ ناصِرُه . .) ! !

ثم حمله بين ذراعيه ، إلى حيث أَرقده بجوار ابنه عَلي ، ثم عاد لِهوْلِ المعركة من جديد . ! !

* * *

لك الله ، أَبا عبدِ الله ! !

وهل اختَارَتْك المقادير لهذا العِبءِ الذي يُدغدغ الجبال ، إلا وأَنت له كُفْوءٌ وبه جدير؟ ؟

أَلاَ صَبرْاً آلَ محمد . . فهذا دَورُكُم في الحياة ، وحظكم من الدنيا . . ياسَادَة الآخرة ، ويامُلوك الجنَّة . . ! !

راح الأَبرار يسقطون في الحومة أَبطالا . .و « الحسين »

يصول هنا . . ويقاتل هناك . . ودمه الزكيّ يتفجر من فمه الذي اختَرمَه سهم وهو يحاول أن يأخذ جرعة ماء . . ! !

ووقف وحيدًا أَمام أَعدائه . .

وحيدًا . . فقد رحَل الأَهل جميعًا ، بعد رحيل الأَصحاب . .

كلهم عانقوا الشَّهادة في سبيل الحق .

وأَحاط به القتَلَة الذين سمّروا في أَماكنهم ، زائغةً أَبصارهم . . واجفَةً قلوبهم . .

لقد كانوا – على كثرة ما اقترفوا من جريمة وسفَكوا من دم – يَهُولُهم دَمُ « الحسين » فيتفادى كل منهم وِزْرَ الإجهاز على حياته .

وهُنا انبعث أَشْقَاها – شمر بن ذي الجون – فصرخ فيهم ، ليختطفوا رأْس البطل . . فاقتربوا منه . . لكنه رغم جراحه ووَحْدَتِه ينقَضُّ عليهم بسيفه . . ويخرج من الفُسطاط غلام صغير ، هو « عبدالله بن الحسَن » فيلمحُ قاتلا يُوجِّه سيفه نحو عمه ، فيصيحُ في براءَة الأَطفال : (يا ابن الخبيثة أَتقتل عمي) . !

فيناله ، ابن الخبيثة بسيفه الجبان ، فيسقط على الأَرض دون أَن تُصيب الضربة منه مقتلا ، ويسارع إليه عمُّه فيحمله إلى

مكانه مع عمته السيدة زينب التي جلست تستقبل الضحايا ، وتُبصر المصاير ، في تفويض لله ، ورِضًا بقضائه ! !

ويْواجه البطل أعداءَه في جولةٍ أَخيرة . فتقع ضربة سيف على رأسه الشريف فتُدميه . . فيشدُّه بعصابة . ويحمل سيفه والدم ينزف من كل جسمه .

والمجرمون يَضربون . . ويضربون . . بيد أَنهم لا يزالون يرهبون دمه . ويتجنبون مَقاتِله ! !

ومرة أُخرى ، تخرج « السيدة زينب » من خِدْرِها . فترى أَخاها وحيدًا بين الوحوش . فتتقدم إلى حيث يسمعها – عمر بن سعد – قائد جيش ابن زياد . وتصيح به :

(يا عُمر . .
أَيقتلْ أَبو عبدِ الله وأَنت تنظر) ؟ ؟ !

فيطرقُ – ابن سعد – خِزْيًا وندامَة . ويصرف وجهه عنها وقد تفجَّرت عيناه بالدموع . . لكنه لا يستطيع أَن ينسلخ من الموقف الذميم الذي ورَّطهُ فيه هواه . .

ويضرع « البطل » إلى أُخته كي تعود إلى مكانها ، ثم يصيح في القتَلة :

(أَعَلَى قتلي تجتمعون ؟ . .

إني لأرجو الله أن يُكرمَني بهوانكم ، ثم ينتقم لي من حيث لا تشعرون) .

ويطير صواب شمر بن ذي الجون ، فينادي فرسانه من جديد ، ويأمرهم أن يقفوا من وراءِ مُشاتِه ورُماته ؛ ليمنعوهم عن النكوص إلى وراء

ثم يصرخ في الرُّماة ، مُتوعِّدًا إياهم مصير ، عندما يرجعون لابن زياد ، ويهتاج كالمسعور طالبا رأس البطل . .

ويتقدم من « الحسين » واحد فيضربه بسيفه الأثيم على معصم يُسْراه ، فتطير كفُّه ، ثم يتقدم ثانٍ فيضربه بسيفه الظلوم على عاتقه ، فيقع على الأرض . . ويحسبون أنه انتهى ، فينصرفون عنه ، لكنهم يُفاجأون به ينهض من جديد متوكئا على سيفه ، فيسارع إليه آخرون موجهين إليه الضربة الأخيرة . . . ! !

ويتقدم شمر بن ذي الجون ، رِجْسُ البشرية كلها ، فيحتزُّ رأس البطل . . ثم يحتفظ به ليحمله هدية إلى ابن زياد ، ويزيد . .

تمامًا ، كما قُدم من قبل رأس « يحى بن ذكريا » عليه

السلام ، هدية لِبَغِيٍّ من بَغايا بني اسرائيل . . ! ! !

* * *

كان النهار قد لَفظ آخر أَنفاسه . .

ومالت الشمس للغروب ، مُخلِّفةً وراءَها شَفَقًا عجيبا في حمرته الزاهية ، ووهَجه المتألِّق . . ! !

وقد امتدَّ على طول الأُفق ، وكأَنه بساط وُضِعَ ومُهِّدَ لِتَعْرج عليه إلى جنان الله أَرواح الشهداء . . ! !

وعلى غير عادة الطقس والمناخ في ذلك الحين وفي تلك الأَرض ، دوَّت طلَقات قوية صادعة كأَصوات الرعود .

ولقد حَسِبَها المجرمون نذيرًا لهم . . ولكنْ لا ، فَهُمْ أَهونُ على الله من ذلك . .

إنما هي السماء ، كانت تُطلق مَدافِعَها تحيَّة . . ! !

تحيَّة إجلال ، للمهمة التي أَنجزها الشهداء . . ! !

وتحيةَ استقبال ، للأَرواح التي كانت قد بدأَت رحلة خُلودها . . حيث تتلقَّى من يَمين الرحمن ما أَعدَّه لها من مَثُوبةٍ ، ونَعِيم ، وعَطاء . . ! !

الفصل السابع

الحصاد، والدَّرس..

.. وانتهى كل شيء ، ليبدأ كل شيء ! !

انتهى اليوم الرهيب بآلامه وأمجاده .. ليبدأ من جديد بدروسه وبحصاده ! !

ولقد أَلِفَ المؤرخون والكتّاب أن يتمثّلوا حصاد كَرْبَلاء ، فيما أصاب قَتَلَة « الحسين » بعد حين ، من قتل وتدمير.. ثمُ فيما شادَهُ المطالبون بِثأره من امبراطوريات ودُوَل سادت الأرض وعَمَرَتْها قُرونا طِوالا ..

أما نحن ، فلنا وجهةُ نظر تختلف تماما ..

فصحيح أن جميع الذين اشتركوا في قتله وقتاله ، لَقُوا حَتْفهم على أبشع الصُّوَر وأشدها مذلّة وهوانا .. كلهم ، من ابن زياد ، إلى شمر بن ذي الجوشن ، إلى آخر واحد من الذين تحمّسوا للباطل ، ووقفوا من ابن بنت الرسول موقف التحدي والعدوان .

ومن عجبٍ أن التاريخ تتبَّع مصارعهم ، فإذا هم جميعا يُقتلون فارّين هاربين .. ! !

ليس فيهم مَن مات ميتَة رجل ..

وكأنما كانت هذه أولى بشائر دعوة « الحسين » عليهم حين صاح فيهم ، وهو صامد وحده وسط سيوفهم ورماحهم قائلا :

(إني لأرجو الله أن يُكرمَني بهوانكم) . . ! !

كلهم قُتلوا ، وديست جيَفُهم بالأقدام . . ما عدا يزيد . . فقد ضَنَّ عليه القدَر بأن يذهب قتيلَ ثورة أو مُقاومة ؛ إذ أن ذلك كان سيضعه إلى حدٍّ مَّا ، في الكفَّة المقابلة للحسين عليه السلام .

كان الناس سيتحدثون : أن دَاعية الحق قُتل استشهادا . .

وأن مِلك بني أمية قُتل عقوبةً وقصاصا . . وهذه مُقابلة قد تجعل منه على صورَةٍ مَّا ، نِدًّا أو كُفْؤًا . . الأَمرُ الذي صمَّم القدر على حرمانه منه ، فتركه يعيش أربع سنوات تعيسًا مُفزَّعا . . ثم يموت في يأسٍ ، وهوان ، ونسيان . . ! !

* * *

نقول : صحيح أن قتلة « الحسين » لَقُوا جميعا شرَّ مصرع وأسوأ نهاية .

لكنَّ ذلك لا يدخل في حسابنا بحال ، ونحن نتتبَّع الحصاد العظيم ليوم « كرْبَلاء » . .

فليس لمقتل أولئك الأشقياءِ شأن يرتفع إلى مُستَوى ذلك

الحصاد . . ولا يُكفِّرُ عن دماءِ الرجال ، بدماءِ الأنذال ! !

• • •

كذلك لا يدخل في حسابنا لحصاد كربلاءَ ، تلك الدنيا الهائلة الحافلة التي شادها المطالبون بثأر البطل من عباسيين ، وفاطميين ، وعَلويِّين . . فإن تلك الدنيا التي شادوها بكل امبراطورياتها ، ودُولها ، وسلطانها . لا ترتفع إلى مُستوى الجوهر النضير لتضحية « الحسين » وحياته ، وثباته . .

وبالتالي ، لا ستطيع أن نعتبرها مَثُوبَةً لتلك التضحيات وذلك الثَّبات .

إن حصاد تضحيته وتضحية رفاقه ، ليَجاوِزُ ذلك كله إلى غايات أَبعد ، وأَمجد ، وأَسمى . .

وإن الدرس الذي يُلْقيه يوم كربلاءَ بآلامه ، وبطولاته . . بمأْسانه ، وَعظمته ، لَيتفوَّق على نُظَرائه في قوة النور الباهر الذي أَضاءَ به ضمير الحياة . .

والآن ، فإن علينا أن نتتبع مواطن العظمة والعبرة في ذلك الحصاد .

• • •

وأوَّل ما يلقانا في هذا السبيل ، هو أن جذوَه الحق والصمود التي أَضاءَها الحسين وأصحابه بدمائهم ، لم تنطفئْ ولم يَخْبُ نورها باستشهاده ، بل ازدادت أَلَقًا وانْدِلاَعًا على نحو يبهر الألباب . . ! !

وتمثَّل ذلك أَوّل ما تمثَّل ، وأبهى ما تمثَّل في أخته العظيمة « زينب » ، وفي ابنه « عَليّ » وهو غير « عليٍّ » الأكبر ، الذي استُشهد مع أبيه .

لقد توقعت الدنيا أَن تحني الكارثة جِباهَ مَن بقى من آل بيت الحسين . .

ولكن الطاهرة البَتُول « زينب بنت علي » وحفيدة الرسول ، سرعان ماردَّت للدنيا صوابها ، حين أَرَتْها من عظمة هذا البيت كل عجيب . .

لقد أخذ – عمر بن سعد – قائد جيش ابن زياد . . أَخذ معه إلى الكوفة أَهل بيت البطل الشهيد من سيدات وأخوات ، وأطفال . .

وأراد أَن تكون له فضيلةٌ وسط يومه الكئيب المظلم في كربلاءَ ، فحافظ على أَهل بيت البطل ، وأكرمهم ، وصانهم من كل سوء .

وتوقع ابن زياد قبل أن يُواجه آل بيت الحسين ، أنه سيلْقَى انكسارًا وضياعًا يستدِرَّان عطف قلبه الجبان.

لكن « أُخت الحسين » ، البطلة . . أُخت البطل . . وبنت البطل . . علَّمته – إن كان لمثله أن يتعلَّم – أَنَّ الهزيمة التي يتفجَّع لها الناس ويستكينون ، إنما هي هزيمة الروح . .

وما كان ولا يكون لدعاة الحق وحملة راياته أن تَنْهَزِم أرواحهم أبدا . . ولا أن تنحني جباهُهم أبدا . . ! !

ولقد لقنته هذا الدرس حين دخلت عليه ومعها أَهل بيت أخيها الشهيد ، فسأَل : مَن هذه . . ؟

فلم تُجبه . . ثم كرّر سؤَاله مرتين وثلاثا ، وهي لا تجيبه ، حتى أَجابته إحدى خادماتها قائلة :

« هذه زينب ، ابنة فاطمة ، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » . .

فقال ابن زياد ، مُداريًا خِزيه الذي أَنزله به احتقار « السيدة زينب » إيَّاه . .

قال البائس التعس : الحمد لله الذي فضحكم ، وقتلكم . .

وهنا مزَّقت البَتُولُ صمتَها بزئيرها العالي :

(. . بَلِ الحمدُ لله الذي أَكرمَنا بنَبيِّه ، وطهَّرنا من الرِّجْسِ تطهيرا . . وإنما يَفضح الله الفاسق ، ويُكذِّب الفاجر – وهو غيرنا ، يا ابن زياد) ! !

واستمرّ ابن زياد في مُداراة خزية أَمام الناس ، فعاد يسأَل البطَلة : كيف رأَيتِ صُنْعَ الله بأَهل بيتك . . ؟ ؟

فأَجابته في عِزَّة إيمانها وتُقاها :

(كُتِبَ عليهم القتل ، فبرَزوا إلى مَضاجِعهم . . . وسيجمع الله بينهم وبينك ، فتختصمون عنده يوم القيامة) . . ! ! !

ورأَى الجبان أَنه أَمام بطلة صعبة المراس ، فراح يُجيل بصره في بقية آل البيت حتى وقع على غُلامٍ مريض ظنَّ ابن زياد أَنه فرصة ليدير معه حديثه المتوقِّح محاولا أُظهار صَلفِهِ وغروره .

كان هذا الغلام « علي بن الحسين الأَصغر » الذي صار فيما بعد إمَامًا عظيما عُرف باسم « علي زين العابدين » .

سأَله ابن زياد : مَن أَنت . . ؟ ؟

فأَجابه الشِّبل الكريم :

– عَليّ بن الحسين . .

قال ابن زياد : أَلم يقتل الله عليًّ بن الحسين ؟ ؟

فأَجابه في أَناة :

– كان لي أَخ أَكبر مني يُسمَّى « عليًا » قتله رجالك . .

قال ابن زياد في جهالَة وقِحَة : بل قتَله الله . .

فأَجابه « عَلي » :

(الله يتوفيَّ الأَنفس حين موتها . . وما كان لِنفسٍ أَن تموت إلا بإذن الله) . ! ! !

ودارت الأَرض بابن زياد ، بعد أَن لَفَحتْه إجابة الغلام الرجل . . فنادى أَحد جلاَّديه : خذ هذا الغلام واضرب عُنُقَه .

وتقدم الجلاَّد القاتل ، فاعترضت السيدة العظيمة « زينب » طريقه ، وضمَّت ابن أَخيها بين ذراعيها وصاحت يا بن زياد : « اذن ، فاقتلْني معه » . .

هنالك انخذل الطاغية ، ولم ينل الغلام بسوء .

* * *

وبمثل مجابهتها هذه لابن زياد ، كانت مجابهتها ليزيد حين أُخِذَ الرَّكْبُ إليه بالشام ، تسبقه رءوس الشهداء وفي مقدمتها رأْس البطل العظيم . . ! !

هناك وقفت تِجاهَه أَمام الحشد الذي جمعه ليظهر أَمامه جبروته الكاذب وطغيانه الرخيص .

وقفت تقول له بملءِ فمها الصادق :

(إنك أَمير مُسَلَّط .

تشتُم ظالما . .

وتقهر بسلطانك . .

« أَظننت يا يزيد أَن بنَا هَوانًا على الله ، وأَنَّ بك عليه كَرامة ، فشمَخت بأَنفك حين رأَيت الدنيا مستوثقة لك . . ؟

« أَلا إنَّ الله إن أَمهَلك ، فلأَنه يقول :

« ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أَنَّما نُمْلي لهم خيرٌ لأَنفُسهم ، إنما نُملي لهم ليزدادوا إثما . ولهم عذاب مُهين.. »

« لَتَرِدَنَّ على الله غَدًا يا يزيد ، وأَنت تَودَّ لو كنت أَبكمَ أَعمَى . .

« ولَتجِدَنَّنَا عليك مَغرمًا ، حين لا تجد إلا ما قدَّمت يداك ، تستصرخ بابن مرجانة . . ويستصرخ بك ! !

« ولَتَعْلَمَن يوم يحكم الله بيننا ، أَيُّنا شرُّ مكانا وأَضعف

جندا) . . ! !

وكما صنع ابن زياد من قبل ، صنع يزيد نفس الصَّنِيع ، فراح يلوذ من قوارع « السيدة زينب » بتوجيه حديثه إلى الغلام المريض . . !

قال له : لقد قطع أَبوك رحِمى . وجَهل حقي ، ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأَيت .

فما زاد الغلام الرجُل على أَن تلا الآية الكريمة :

(ما أَصاب مِن مُصِيبَة في الأَرض ولا في أَنفسكم إلاَّ في كِتاب من قبل أَنْ نَبْرَأَها ، إن ذلك على الله يسير . .

« لِكَيْلاَ تَأْسَوْا على ما فاتَكُم ، ولا تفرَحُوا بما آتاكم . والله لا يُحِبُّ كل مُختالٍ فَخُور) . . ! !

راحت كلمات « زينب » الحارّة وأَنفاسها الساخنة ، تَهَبُ جَذْوَة أَخيها الشهيد مزيداً من التوهُّج واللألاَءِ . فإذا الناس أَفراداً وجماعاتٍ يرفعون جباههم جميعا مُتحدِّين ذلك النصر الرخيص الذي أَحرزه يزيد ، وابن زياد . .

فيقف الصحابي الجليل « يزيد بن أَرقم » رغم كُهولة سِنِّه

ووهن جسمه ، يصرخ في أَهل الكوفة :

(يا معشر العرب الذين صِرْتُم عبيدا . . أَتقتلون ابن فاطمة . . وتُؤَمِّرون ابن مرجانة) . . ؟ ؟ !

ويقف « عبد الله بن حنيف الأَزدي » لا يمنعه ذهاب بصره ، وضعف شيخوخته ، فيصيح بابن زياد أَمام الملأ من الناس :

(يا ابن مرجانة . . أَتقتل أَبناءَ النبين ، ثم تقوم على المنبر مقام الصدِّيقين . . ؟

« أَلاَ إِن الكذاب ، لَهُوَ أَنت وأَبوك . . والذي ولَّاك وأَبوه) . . ! !

وتنهضُ في الكوفة كتائب « التوَّابين » مُقْسمة أَن تهَبَ حياتها لثأر « الحسين » . .

وتشتعل الثورة عارمة في مكَّة ، وفي المدينة حيث يُجرِّد لها – يزيد – من جنده وقُواده من ينزِلون بالحرمَيْن المقدسين من الدمار والقتل والإِفك ما يخجل الشيطان من اقترافه .

ولكن الجذوَة المباركة لا تخبو ، حتى يموت بحسرته يزيد ، ويخلُفه ابنه « معاوية الثاني » . . وهُنا يُوجِّه القدر الحكيم أَذكى ضرباته ، فيقف ابن يزيد نفسه ليحمل شعلة الحسين ، ويزيد

الجذوة ضِرامًا ، حين يجمع الناس ليوم مشهود ، ثم يعلن فيهم كما أَسْلَفْنا من قبل - أَن جدَّه وأَباه اغتصبا الحق من أَهله ، وأَنه يبرأُ إلى الله مما جنَتْ أَيديهما . . وأَنه يَرْبأُ بنفسه وبتقواه عن أَن يجلس على العرش الملوث بالجريمة . . ! !

ثم يُعلِنُ عليهم اعتزاله منصبه . . ويعتكف في بيته حتى يأَتيه الموت ، فيلقى الله تقيّا ، نَقِيًّا ، سعيدا . . ! !

* * *

ويلقانا من حصاد كربلاءَ ودروسها العظيمة ، جلالُ الإيمان وسلطانه القاهر .

فالحسين رضي الله عنه حين خرج إلى الكوفة لم يكن طالبَ دنيا ولا جاه . إنما كان مستجيبا لسلطان الإيمان الذي لا يُعْصَى ولا يُغلَب .

ولقد رأَى الإسلامَ بكل قِيَمِهِ الغالية وأَمجاده العالية . يتعرض لمحنة قاسية يفرضها عليه بيت أَبي سفيان .

ورأَى خطيئة الصَّمْت والسُّكوت تجتاح الناس رَغْبَةً حينا ، ورَهْبَةً أَحيانا . .

كانت بيعة يزيد دَعْما لسلطان الجاهلية على حساب الدين

. . ودَعْمًا لسلطان القبيلة والأُسرة على حساب الأمّة . .

وهكذا صارت مقاومتُها دَعْما لسلطان الدين والأُمة معًا .

ولَئن فات « الحسين » دعم هذا السلطان في النظام العام عن طريق الخلافة ، التي لم يكن له من أمرها شيْ ، فإنه لم يتخلَّ عن واجب دَعْمِهِ في الضمير ، عن طريق التضحية والصمود والفداء .

وهكذا . . وفي سبيل إيمانه الوثيق والعريق ضحَّى البطل الشهيد براحته ، ثم بحياته . . وضحى معه أهله الأقربون ، وصحبه الأكرمون .

ولقد يبدو لبعض الذين يفكرون في عَجَلَة ، أن « الإمام الحسين » ومن قبله والده « الإمام علي » كانا بإيمانهما ، وبما يَنْشدان للحياة وللحُكْم من ورَع وتقوى يمثلان جُمودًا لم تعد تطيقه الحياة بعد التطور البعيد الذي حققه الإسلام وانْفَعل به .

فالحق أنهما على العكس تماما ، كانا يُمثلان رُوح التقدُّم وضميرَه . .

بينما كان الآخرون من بني أمية بتحويلهم الدين إلى مزرعة أموية . . وبتحويلهم الخلافة إلى مُلْكٍ يحتكرونه ويتوارثونه ،

وبتحويلهم السُّلْطة إلى سوط . . وبإشاعتهم النزعة القَبلية بعد أَن أذابها الإسلام في وحدته الصُّلْبة . كانوا بذلك كله يمثلون الرجعية المنتكسَة إلى عادات الجاهلية وتقاليدها .

لقد كانت تُضيءُ إيمان الحسين وتَسْتَجيشُه دومًا ، تلك الكلمات الصادقة التي قالها جدُّه العظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(هلاكُ أُمتي على أَيدي أُغيْلِمَةٍ من قريش) .

وها قد جاءَ زمان الأُغَيْلِمَةِ مُمثَّلاً ومُمَثَّلِين في يزيد ، وابن زياد ، وما حولهما من بطانة الإثم والسوء . . ! !

وهناك حقيقة كان يدركها « الحسين » تماما . ويدركها أَبوه « الإمام » من قبله – هي أَن بلاط معاوية وجيش الشام نَفسه قد أَفْسحا مكانا رَحْبًا وعريضا لكثيرين من الموتورين الذين تظاهروا بالإسلام ليندسُّوا بين صفوفه مخرِّبين ومُدمِّرين .

فالايمان الذي حمل « الحسين » لواءَه ، وذهب شهيده كان لهذا كله ، وبهذا كله . إيمانا مستنيرا وواعيا ورشيدا .

• • •

كذلك نواجه من حصاد كربلاءَ ودروسها ، ذلك الدرس

العظيم عن عظمة التضحية ، وقداسة الحق . : فالقدَر الحكيم ، يرتفع بالتضحية في « كربَلاءَ » إلى أعلى مستوياتها المرموقة ، ويجعل منها ومن الحق « قيمة مطلقة » تُحقق ذاتها داخل ضميرها أولا . . ثم تعكس جلالها وسلوكها على الزمان والمكان بعد ذلك . .

إنه يفصلها عن كل شيء عداهما ، حتى عن النصر ذاته . .

وهكذا رأينا اثنين وسبعين مقاتلا يصمدون لأربعة آلاف فارس يومًا بأكمله ثم يستشهدون جميعا بعد أن يُنزلوا بعدوهم خسائر فادحة تمثَّلت في زيادة أعداد قتلاه عن عدد أولئك المستشهدين .

كأنّما أراد القدر أن يقول لنا : إن الدرس الذي أريد إلقاءَه اليوم ، ومن فوق مِنَصَّة كربلاءَ الشاهقة ، لا يتمثل في قدرة القلة المؤمنة على إحراز النصر على الكثرة الساحقة . فطالَما ألقيتُ دروسا من هذا الطراز .

إنما درس اليوم عن عظمة التضحية وقداسة الحق . درس اليوم فَحواه أن التضحية قِيمَةٌ بذاتها ، وأن الحق قِيمَةٌ بذاته . . .

وهما لا يستمدان جَدارتَهما ومكانتهما مما يُحرِزان من نصر . أو يكتسبان من مَغْنم وسلطة .

فالانتصارات والمغانم يظفر بهما الباطل أحيانا ؛ ويحققهما الإذعان أحيانا .

وإذن فالصفة المميِّزة للتضحية ، أنها التضحية وحسب . . والصفة المميزة للحق ، أنه الحق وكفى . .

والمَثُوبة العظمى التي ينفرد بها أبطال التضحية وأبناء الحق ، هي انتماؤُهم العظيم للتضحية وللحق . .

أَجَلْ . . هذا هو الدرس الجليل الذي كان القدر يلقيه على الدنيا في يوم كربَلاء ، متخذا من حركة القتال وسَير المعركة وَسائِلَ إيضاح . . ! !

فهو يَدعُ الآلاف الأربعة من فرسان ابن زياد يترنحون تحت ضربات « اثنين وسبعين » لا غير من أنصار « الحسين » وأبناءِ الحق ؛ ليكشف - أعني القدَر - عن قدرته على إبادة ذلك الجيش لو أراد . . لكنه لا يريد ؛ لأنه يُعِدُّ هذه المعركة وذلك لمغزىً آخر يُؤكِّد شرف التضحية وقداسة الحق مُسْتَعْلِيَيْن بذاتَيْهما عن كل شيءٍ ، حتى عن النصر والنجاح ! !

* * *

ولقد أَبرزَتْ بطولات كربلاءَ شرف التضحية على نحو باهرٍ وجليل ، حتى لَنكادُ نحسب أن الأقدار إنما أرادت ذلك

اليوم بكل أهْوالِه وتضحياته لتؤكِّد شرف التضحية في وعي البشرية كلها ، ولِتُضِيءَ بمغزاه العظيم ضمير الحياة . .

من أَجل ذلك ، اختارت لها في يوم كربلاءَ ، نماذج رفيعة ، بالغة الرِّفْعَة . . وقضية عادلة ، بالِغةَ العدالة . . ونضالا باسلاً ، بالغ البسالة . .

إذن هي شرف الإنسان وشرف الحياة .

وما دامت التضحية شرفًا ، فيجب أَن يُصرف النظر عن الشكل الذي يفرضه عليها الاضطهاد والبغي . فالتضحية ليست حفلا ساهرا . . وسواء على البَطل أَن يستشهد وجسده سليم . . أَو يَقْضِي ، وجسده مُمزَّق . . أَن يبقى رأْسه مكانه من الجسد ، أَو يُفصل الرأْس ويُمثَّل بالجسد ! !

كل ذلك ، وأَكثر من ذلك يُغطِّيه شرَف التضحية ، ويُحوِّل أَساه إلى مَجْد . . وفَواجِعَه إلى بُطولات ! !

ومن شاءَ فلْينظُر ، فهؤلاء نَفَرٌ من أَكرم الخلق ، وأَتقى الناس . تُمزَّق أَجسادهم بسيوف الباغين ، ثم تُختَزُّ رءوسهم — اثنان وسبعون رأْسا — وتُغرس في أَسنَّة الرماح . . ! !

فهل انتقص ذلك مِثقال ذرَّة من شرف التضحية وعظمتها . ؟

أَبدا . . بل زادها تألُّقًا وشرفا . .

إِن الأَجساد بمجرد إِلقائها النفس الأَخير يُزايلها الإِحساس بالأَلم . . ثم تنال الأَرواح مكانها العالي عند الله بقدر بلائها وتضحياتها ، كما تنال مكانها العالي في ضمير التاريخ بقدر بَذْلِها وعطائها .

ومن ثَمَّ فالناس يخطئون عندما يقفون أَمام شكل التضحية وما يصاحبها من أَلم وفاجعة ، ثم لا يجاوزون هذا الشكل إلى جوهر التضحية ، حيث العظمة والجلال . . ! !

ولقد أَدرك هذه الحقيقة ، وعبَّر عنها في أَصالةٍ عظيمة ، بطل الإِسلام العظيم « خالد بن الوليد » حين تمثَّلَ مَأْساةَ حياته في موته على فراشه ، محروما من شرف القتل على أَرض المعارك والنضال . فقال قَوْلَته المأثورة :

(لقد شهدتُ كذا ، وكذا زحفًا . . وما في جسدي موضع إلا وفيه ضَرَبَةُ سيف ، أَو طعنة رُمح ، أَو رَمْيَةُ سهم . . ثم ها أَنذا أَموت على فراشي حَتْفَ أَنفي ، كما يموت البعير ، فلا نامَتْ أَعيُن الجُبناء) . . ! !

* * *

وفي واقعة كربلاء هذه ، يتألَّق ذلك المغزى تألُّق النهار .

فإذا كانت في شكلها الخارجي تبعث الأَسَى والحزن ، فإنها في جوهرها العظيم تَسْتجِيشُ كل ما في النفس البشرية من إعجاب وإجلال .

إنها تبدو، وكأَنها مهرجان للحق بالغ الروعة ! !

وتبدو ، وكأَنها عيد للتضحية نادر المِثال ! !

إن المسلمين يحتفلون كل عام مرة بعيد الأَضحى ، ويسمونه « العيد الأَكبر » . . فماذا كانت مُناسبة هذا العيد في التاريخ . . ؟ كانت مناسبته التضحية . . ولا شيءَ سواها . .

فخليل الرحمن « إبراهيم » أَراد القدر أَن يُلَقِّن البشرية عن طريقه درسا ليس كمِثله درس في تقديس مشيئة الله وتلبية ندائه وأَمره ، فدعاه أَن يذبح ولده ، فسارع مِن فوره ، وشحَذ سِكِّينه ، وتَلَّ ولَدَه للجبِين ، . وفي اللحظة الباهرة ملأَ الوحي رُوعَه وفؤَاده :

(يا إبراهيم ، قد صَدَّقْتَ الرؤْيا . . إنَّا كذلك نجزى المحسنين) . ! !

فهل اتخذ الإسلام من تلك المناسبة عيدا ، لأَن الله افتدى « اسماعيل » بِذِبْحٍ عظيم . . ؟ !

كلاً ، فلقد كان سيحتفل بها أيضا لو انتهى الأمر إلى أن يكون « إسماعيل » الذبيحَ والقُربان . .

ذلك أن الاسلام يحتفل بمضمون الموقف وجوهره – التضحية بأعز شيْ . . في سبيل رَبّ كل شيْ ، وإله كل شيْ . . ! !

ولقد وقف « الحسين » وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفا استحق ببطولاته وتضحياته أن يكون للتضحية عيدا ، أيّ عيد . . ! !

لقد رفَضوا الباطل ، واختاروا الحق . .

ثم رفضوا الصَّمت ، وآثروا المقاومة . .

ثم رفضوا المساومة ، وصمدوا مع إيمانهم . .

ثم لما رأَوا أَنفسهم اثنين وسبعين ، وسط أربعة آلاف فارس ورامٍ ، ولم يعد هناك أدنى ريب في أن الموت هو الذي ينتظرهم ، اقتحموا الهَوْل في مشهد مجيد ، مُقرِّرين بمحض اختيارهم وإرادتهم أن يمنحوا أمتهم ، بل والبشريةَ كلها هذه القدرة الرائعة في التضحية . . وهذا العيد الممجَّد للفداء . . ! !

وفي جلال المُفْتدين ، وإخبات المتقين ، راحوا يؤَدون مهمتهم القاسية والعالية ، حتى أَنجزوها في نجاح عظيم . . ! ! !

* * *

وإني لأكادُ أَرى المعركة أَمامي . .

أَرى وَقْعَ السيوف ، وقَذْف الحِراب . . أَرى قطع الرقاب ، وتمزيق الأَجساد . . أَرى وحشية المجرمين ، وصمود المتقين . .

أَرى ذلك كله ؛ فلا يخدعني الشكل الفاجع عن الجوهر المجيد . . !

ولا تصرفني مأَساة الموت ، عن عظمة الشهادة . . !

ولا يشغلني مأَتم الأَرض ، عن انبِهَارِ السماء . . ! !

أَجلْ . . لكأَني أَرى السماءَ يومها مُبْتَهِجَة وهي ترى الحق يستعيد قداسته في ذلك اليوم الرهيب ، ويُثبت استعلاءَه بهذا الصمود العجيب . ! !

ثم ، وهي ترى حكمة الله في اختياره تتجلَّى . .

فقديماً ، وعندما كان الرسول عليه السلام في بدء دعوته ، قال كُفار قريش : أَوَلم يجد الله غير ذلك البيت الهاشمي الفقير ليختار منه رسوله . . ؟ ؟

فأَجابهم الوحي صادعًا رائعا : –

(الله أَعْلَمْ حيث يجعل رسالته) .

أَجَلْ ، الله أَعلم . .

وها هو ذا عِلْمُه يتألّق للدنيا ، ولا كمثلِه تألّق النهار . . ! !

فالرسول لم يكن وحده بطل التضحيات ، لأَنه رسول . .

بل ها هو ذا عمه « حمزة » بطل الإسلام في « أُحُد » تمزقه السيوف والأَحقاد ، حتى تستقر كبده بين أَنياب « هند » زوجة أَبي سفيان . . ! !

وهاهو ذا « جعفر » ابن عم الرسول ، بطل « مُؤْته » تحصد جسده سيوف الروم . . ! !

وهاهو ذا « عَليّ » ابن عم الرسول . . بطل الإسلام في كل غزواته ومشاهده . . وبطَلُه في وجه الوثنية الأُموية التي أَرادت أَن تُحوِّله إلى مُلْك عَضوض - يمضي هو الاخر شهيد اغتيال أَثيم . . ! !

وهاهو ذا « الحسَن » بطل السَّلام في الإسلام ، تغتال عصابةُ الشيطان حياتَه بالسُّم . ويأَخذ مكانه العالي بين الشهداء . . ! !

ثم هاهم أُولاء . أَبطالٌ كرام من نفس البيت الممجّد والعظيم ، يصارعون أَربعة آلافِ مُدجّجين بالجريمة والسلاح . .

وليس معهم في ذلك اليوم الرهيب سوى خمسين ناصر اومقاتلا .

ويتقدم الاثنان والعشرون إلى التضحية والموت في استبسال معجز . ويعانقون الشهادة جميعا ، لا يبقى منهم سوى فَتى مريض . . ! !

أليس حقًا ، أنَّ الله أعلمْ حيث يجعل رسالته . . ؟؟

أَليس حقًا ذلك يا رجال . . ؟ !

* فأَي شيءٍ في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته ؛ فنرى فيه وجه المأساة ولا نرى أَمجاد البطولة . . ؟ ؟

أَلأَنَّهم قاتَلوا ظِماء وماتوا ظِماء . بينما أَمواه الفرات تتفجَّر أَمواجها على بعد خطوات . . ؟ ؟

وأَيّ بأْس ، وهم بعد ساعات معدودات سيكون لهم كَوْثر الرحمن كله . . يَشربون منه عَلَلاً بعد نَهْل . . ؟ !

الآن نكاد نعرف . . فَلكأَنَّ هذا اليومِ كان في حساب الوحي يوم نزل على الرسول من ستين عاما مضتِ معزيا ومبشرًا وقائلا :

(إِنَّا أَعطيناك الكَوْثر) . . ! !

* وأَيُّ شيءً في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته . . ؟؟

أَلأَنهم وحدهمِ في تلك الفَلاة يقاتلون ، وهناك في طول البلاد

الإسلامية وعرضها ملايين البيوت أوى إليها أهلها ، واستقروا آمنين تحت سقوفها . . ؟؟

وأيُّ بأس ؛ ما دام الله سبحانه قد ترك الملايين من تلك البيوت ، ثم اختصَّ هذا البيت وحده بأعظم ما في الدنيا من مجد وشرَف – شرف اصطفائهم لحمل رسالته ، وإعلاء كلمته . . !

• وأيّ شيء في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته . . ؟ ألأن المعركة ستُخلِّف أجسادهم فوق أرضها صرعى بينما المجرمون يتلمَّظون بنصر تعِسٍ رخيص . . ؟ !

سَلُوا الله إذن عن حكمته في تلك الصفوف العَارمة من القدِّيسين والأبرار الذين صرعهم الباطل عَبْر التاريخ من كل أمة ، وعصر ، ودين . . ! !

• أم لأنَّ رأس « الحسين » سيُفصل عن جسده ، ثم يحمل هدية لابن زياد ، ويزيد . . ؟

سلوا الله إذن عن حكمته في رأس . « يحيى بن زكريا » نبيه الكريم والعظيم حين فُصل عن جسده ، وقُدم هدية لِبَغيٍّ من بغايا بني اسرائيل . . ! !

• أم لأننا سَنرى الفتى المريض المُجهَد – « علي بن الحسين » الذي فقد في المعركة أباه ، وإخوته ، وأعمامه يُقيَّد بالأغلال

ويُطَوِّف به في شوارع الكوفة التعِسَة . . ؟ ؟

ألا فَلْنحطم مقاييسنَا الجاهلية الضريرة ، إذا أَردنا أَن نبصر جوهر الأَشياء . .

وإذا لم يكن بُدّ لأقدامنا أَن تبقى على الأَرض ، فلترتفع عنها عقولنا ورُؤَانا ، إذا أَردنا أَن نتعرف إلى حكمة السماء . . !

وإذا كانت وحشية المجرمين سترينا في كربلاءَ وجه الفاجعة التي تُذيب الصخر ، وتصهر الحديد . . فإن شرَف التضحية وجلال الحق سيريانِنا فيها روعة المهرجان ، ومَجْد العيد . . ! !

* * *

ونختتم حصاد كربلاءَ ودروسها بمثوبة التضحية . . فَتُعلِّمنا دروسها العظيمة أَن التضحية مَثُوبَةُ نفسها ، وأَنها ما دامت في سبيل الحق ، فإن انتظار الأَجر عليها جهل « بِقيمتها » إلا أَن يكون هذا الأَجر رِضَا الله ، ورضوانَه ، وجنانَه . .

وليس معنى كون التضحية مَثُوبَة نفسها أَنها تَحرِم أَبطالها مِن مزاياها وعطاياها . . وإنما معناه أَنها ترتفع بتلك المزايا والعطايا إلى مُستوىً من القداسَة ، والقدوة ، والخلود ، يُزرِي بكل مغانم الدنيا العاجلة وأَمجادها الزائلة ! !

إن مظاهر الرُّقِيِّ البشَرِيِّ كثيرة . ولكن شرف الإنسان وجدارته بالحياة لا يزالان ، وسيظلاَّن مَنُوطَيْن بقدرته على التضحية النبيلة والجليلة من أَجْل الحق .

واللوحة التي رسمتها تضحيات « الحسين » وأَهله وصحبه بوَّأَتْ هذا الشرف وتلك الجدارة أَعلى المنازِل والذُّرى . .

إنهم لم يُقْدِموا على تضحية يُرجَى من ورائها النصر. بل أَقدموا على التضحية من أَجل التضحية ذاتها . .

وهكذا جعلوها وسيلة وغاية . .

كما أَكَّدُوا معنى أَنها مَثُوبةٌ نفسها ، وأَنها قِيمَةٌ بذاتها ! !

* * *

وبعد ، فأَكاد أَسْمعكم تقولون : إنك لم تُحدِّثْنا عن أَجساد الشهداء الأَبطال ، أَين استقرَّت . . ؟ ولا عن رأْس « الحسين العظيم » أَيَّانَ مصيره ، ومُرْسَاه . . ؟ ؟

أَما أَجسادهم الكريمة ، فقد استقرت تحت الثَّرَى الدامي لأَرض كربَلاء . . ! ! !

فعلَى أَثر رحيل جيش ابن زياد خَفَّ إلى مكان المعركة نَفَرٌ من بني أَسَد ، كانوا ينزلون بالقرب منها ، فدفنوا جثمان البطل

العظيم . . وعند قدميه دفنوا جثمان ابنه الحبيب « علي بن الحسين » ، ومن حولهما دفنوا أجساد بقية الشهداء الممجَّدين . . وحيث وقع « العباس بن علي » أخو « الإمام الحسين » شهيدا ، دفنوا جثمانه الكريم .

* * *

وأما رأس البطل ، فقد راحت البقاع الإسلامية تتنافَس ادِّعاءَ شرَف إيوائه ، فَيدَّعى كل منها أن الرأس عندها يُعطر أرضها ، ويبارك حِماها ! !

لكنْ لا يُعرف على وجه اليقين أين هو . .

وذلك أمر يَتَّسِق مع حياة البطل ومصيره . ! !

فرأس الحسين ، بكل ما مثَّله من صمود وعظمة وتضحية لم يَعُدْ مِلْكًا للحسين ، ولا مِلْكا لجسده . .

لم يَعُدْ مِلكا لأرض . . بل ولا لِدينٍ دون دين . .

لقد صار مِلكًا للبشرية الراشِدَة في كل زمان ومكان .

صار مِلكا للحق ، يرفعه في أوديته العامرة والثائرة لواءً وقُدوة ، ويملأ بِسَناه إرادة الحياة عزما ، وضميرها نورا . . وكذلك صارت رءوس أهله وصحبه . . مَشاعِلَ فوق طريق الحق ، والشرف ، والإيمان ! !

في هذا الكتاب

صفحة